امبرتو ايكو
و كارلو ماريا مارتـــيني

بماذا؟
الإيمان

مراسلات حول الفلسفة والاخلاق والدين والعلمانية

ترجمة : د. عواطف السعدي



أبكالو

Croire en quoi?

الإيمان بماذا ؟

أمبرتو إيكو

ترجمة

د. عواطف السعدي

أبكالو 2019

المحتويات

مقدمة

إن هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ صغير بحجمه كبير بما يحمله من معاني وأفكار معروضة. ليس فقط بالمعنى الحرفي وكذلك بالمعنى المجازي. إذ نقرأ هذه الخطابات المتبادلة التي تشكل حواراً فلسفياً ودينياً وروحياً عميقاً يمس المؤمن وغير المؤمن، تزيدنا يقيناً بأنّ التفاهم والتحاور هما الصفتان الغالبتان على طبيعة البشر و ليس الصراع والنزاع، وعندما نتحدث عن المؤمن نعني بذلك كل من يعتنق ديناً سماوياً أو معتقداً لاهوتياً بغض النظر عن مسماه.

يقوم الكتاب على حوار بين الفيلسوف والروائي والباحث المتخصص في القرون الوسطى الإيطالي امبرتوايكو Umberto ECO المولود في 5 يناير 1932 والمتوفي في 19 فبراير 2016، وبين

كاردينـال ميلانـو السـابق (متقاعـد حاليـاً) نيافـة كـارلو ماريـا مارتيني Carlo Maria MARTINI . وقد جرى هذا الحوار البريدي في عام 1995 أيّ في الحقبة التي وقف فيها العالم على أعتاب ألفية جديدة . إذ دعت أحدى الصحف الإيطالية الشهيرة وهي مجلة ليبرا هـاتين القـامتين العملاقـتين لإجـراء الحـوار علـى صـفحاتها، واستمرت هذه الرسائل للمدة بين آذار 1995 وكانون الثاني 1996. وجمعت هذه الرسائل الثمانية في كتاب نُشر في عـام 1997 باللغـة الايطالية ومن ثـم تـرجم الكتـاب إلى الفرنسـية و نشـر لأول مـرة في عام 1998م و أُعيدت طباعته عام م2014 .

ويتـألف الكتـاب مـن ثمـاني رسـائل : أربـع اسـئلة وأربـع اجابات، يبادر امبرتو ايكو الذي يُعد أحد أهـم النقـاد اللادينـيين في العـالم بطرح ثلاثـة اسئلة ويختم الكاردينـال مـارتيني وهـو بطبيعـة الحـال المتحـدث باسـم الجانـب الآخـر مـن الإنسـانية الـذي يـؤمن باللاهوت رسالاته بسؤال أخير يدور الحوار بشكل عام عن الإيمان والإلحـاد وعلاقـة الإنسـان بـالله مـن خـلال تسـاؤلات أثيرت على اعتاب الفية جديدة . ويمكن تلخيص الاسئلة بالصورة الآتية :

السؤال الاول : مع هوس العلمانيين بما يطلقون عليه " نهاية العالم" ماذا تعني الألفية الجديدة للمتدين وغير المتدين؟

السؤال الثاني : متى تبدأ الحياة الإنسانية؟ وهنا يتحدث عن الإنسانية بمعناها الحقيقي إذ يتحدث عن الإنجاب والإجهاض، وبمعناها المجازي من ناحية الرحمة و الشفقة .

السؤال الثالث : كيف سيكون دور المرأة في كنيسها لغد؟

والسؤال الرابع: والأخير فقد طرحه كارلو ماريا مارتيني : أين يجد العلمانينون الحق ؟ هل يستمد من الإيمان بالخير والشر أم من مصدرهما أم من الأخلاقيات المطلقة ؟

لقد ترجمنا هذا الكتاب اعتماداً على النسخة الفرنسية التي حملت عنوان "بماذا نؤمن" بينما حملت النسخة الإيطالية عنواناً آخراً هو : " بماذا يؤمن غير المؤمن؟".

والملاحظ أن الحوار كان ودياً للغاية بين الطرفين مما دعا امبرتوايكو إلى الكتابة في رسالته بطرح السؤال وهو ينتظر إجابات الآخر" ومن هنا تولد لدي الانطباع بأني أُمثل حالة تحقيقية. وهذا

معناه إني أُقدر كثيراً التصميم والتواضع الذي من خلاله قمت ولثلاث مرات بتدمير الاسطورة القائلة بأن اليسوعيين يجيبون عن السؤال بسؤال آخر "وعليه فإن أهم المعاني المجازية التي يحملها لنا هذا الكتاب هو خطورة الأحكام المسبقة المسببة للكثير من سوء الفهم. والتي تقف حجر عثرة في طريق التواصل والحوار بين الأفراد والجماعات.

دلالات في الشكل : الحوار

يحمل هذا الكتاب في شكله كثير من الدلالات فبوصفه حواراً بين فكرين نقيضين هو في حد ذاته دعوة للحوار في زمن كثُرت فيه الصراعات والنزاعات والانشقاقات بسبب الامتناع عن سماع الآخر واحتوائه، فكل طائفة منغلقة على نفسها، لا تسمع سوى صوتها وليس لديها عمل سوى اجترار أفكار الماضي وطروحاته وليس لها من همٍ سوى مخالفة الآخر ومحاربته. فقد كان من الممكن لامبرتو ايكو كتابة مقالة أو بحث يُعبر فيه عن أفكاره وآراءه في المواضيع المعروضة، و يمكن للكاردينال ماريتيني القيام بالشئ ذاته، فلم الرسائل؟ وما جدوى الحوار؟

لقد حملت هذه الآلية مغزى كبيراً وهو الدعوة للتعايش بين الأضداد ليس فقط في وطن واحد وإنما على كوكب واحد وتحت المسمى نفسه وهو مسمى الإنسانية. لقد نال امبرتو ايكو تربية كاثوليكية إلا أنه تحول إلى الجانب الآخر غير المتدين بعد أن مرّ بأزمة إيمانية. من هنا كانت ثقافته الدينية السابقة خير معين له في هذا الحوار الهادف، إذ يتبين لنا في كل ما يعرضه إنه عالم بدقائق الأمور التي يعرضها نيافة الكاردينال، وأنه ينطلق في تساؤلاته وطروحاته من أرضية صلبة لا تتوافر للجميع. ومع ذلك فقد أبدى إعجابه بصراحة الكاردينال مارتيني الذي لم يراوغ ولم يتهرب من اسئلته.

وقد أوصل لنا هذا الاسلوب الحواري الشيق كذلك مبادئ وأخلاقيات الحوار، إذ كان الاثنان غاية في الكياسة والتهذيب، وضربا أروع الأمثلة في احترام الرأي الآخر مهما كان اختلافه أو اتفاقه مع رأينا. فضلاً عن ذلك اتباعهما الاسلوب العلمي في الاقناع من ناحية الاسهاب في الشرح والاستعانة بالأدلة والاستناد

إلى المصادر الرصينة المختلفة من كتب دينية أو فلسفية أو حوادث حقيقية.

إن اسلوب الرسائل المتبادلة له فوائده أيضاً فلو كان الحوار مباشراً ووجهاً لوجه بين الطرفين لن يتسنى للقارئ التفكير أو المساهمة برأي او مقترح، لكن توجيه السؤال عبر رسالة تنشر في المجلة يتيح للقارئ المشاركة والمساهمة من موقعه وذلك بالتفكير ومحاولة ايجاد اجابته الشخصية على هذه الرسالة في انتظار الرسالة التالية التي تحمل الجواب وهكذا دواليك. فمساهمة القارئ الفاعلة تكمن في تفاعله مع الاسئلة التي تدور بالدرجة الأساس حول مواضيع تخص القرّاء في كل زمان ومكان.

دلالات في الشكل : المستوى اللغوي

تميزت لغة الحوار بين هذين المثقفين بصعوبته البالغة إلى درجة الشكوى من بعض القرّاء بعدم التمكن من التواصل وفهم كثير من النقاط المطروقة. وهذا الاسلوب ليس غريباً على امبرتو ايكو تحديداً، إذ لا بد للقارئ من الاستعانة بقاموسه أو الرجوع إلى

الشبكة العنكبوتية لفهم مقصده. ويتبادر إلى اذهاننا التساؤل عن غاية ايكو من المحافظة على هذا المستوى الرفيع والمعقد من اللغة في حين إن المواضيع المعروضة تخص الجميع : المثقف وغير المثقف لأنها اسئلة تمس وجوده ومعتقداته ومستقبله، و إن نشر الرسائل في أحدى المجلات حتى وإن تميزت برصانتها يختلف في الأحوال كلها عن نشر أفكار هذا الفيلسوف وتأملاته في كتاب مخصص لجمهور على مستوى ثقافي وعلمي معين. ونؤكد على أن إيكو هو من تعمد عدم تبسيط لغة الحوار لأن نيافة الكاردينال مارتيني عرض هذه الجزئية ولم يكن من ايكو إلاّ أن يستمر بأسلوبه مؤكداً على أن خطابه موجه إلى النخبة.

إن استعمال هذه اللغة الرصينة يتلائم مع أهمية المواضيع المعروضة، فليس من اللائق استعمال لغة سهلة وبسيطة لشرح أمور مهمة ورصينة تتعلق بالخلق والوجود والعقائد. فتناول هكذا مواضيع يتطلب مصطلحات ومفردات تخصصية محدده تعطي المعنى المطلوب ولا تتجاوزه أو تتعداه فكيف إذن نستبدلها بمفردات مبسطة.

لا ننسى إن اختيار مستوى اللغة يحدد بدوره قارئ النص ، لقد أراد ايكو أن يكون قرائه من النخبة ولم يرد الاستخفاف بعقولهم وثقافتهم من خلال تبسيط لغته ، بل فضل الارتقاء بقرائه ودعوتهم لبلوغ مستواه ومجاراته فيه اختياراته الفلسفية الناضجة. إذن علينا الاعتراف بأن صعوبة لغة النص إن دلت على شيء فتدل على احترام ايكو لقرائه وثقته بهم.

دلالات في الشكل : متلقي النص

يبدو لنا من الوهلة الاولى أن ايكو يخاطب نخبة معينة من القرّاء وذلك من خلال لغة النص الصعبة نسبياً ذات الدلالات والاحالات العديدة. إلا إننا نرى أن الفيلسوف الإيطالي يتوجه بأفكاره وطروحاته إلى البشر قاطبة وهذا ما نفهمه من عرضه لقضايا إنسانية عامة في أغلب الأحيان. لكن اختياره للغة صعبة ومعقده جعل من النخبة المثقفة المتلقي الأول الذي يقوم فيما بعد بنقل ما فهمه إلى بقية القرّاء. وهنا أيضاً يظهر جلياً احترام وإجلال واضح لدور المثقف في المجتمع ، فإن لم يستطع الكتابة والإبداع فعلى الأقل يقوم بدور الوسيط بين المفكرين وبين باقي الأفراد.

يحمل الفيلسوف المفكر هماً دائماً وهو الارتقاء بواقع المجتمع الثقافي وبمستوى وعي الفرد، ولن يتحقق ذلك بمراعاة بساطة المجتمع ومحاولة تبسيط الأمور بل على العكس يجب على المفكر الالتزام بلغته الفكرية وبالتالي دعوة المتلقي للارتقاء بفهمه كي يصل إلى مصاف هذا المفكر ويصبح نداً له. من هنا جاء تأكيد امبرتو ايكو للحفاظ على رصانة الحوار، وهو أمر طبيعي لا تشوبه أيٌّ شائبة من تكلف أو تصنع. فنراه في روايته الأخيرة " العدد صفر" يؤكد على أن واجب المؤلف ليس كتابة ما يعتقده القارئ لأن المشكلة ليست فيما يحتاجه القارئ بل فيما يجب أن يتغير فيه.

دلالات في المضمون : الافكار الرئيسة

يتناول الكتاب مسائل جوهرية في حياة الإنسان تهدد استمرار حياته مثل مسألة نهاية العالم التي شغلت الكثيرين وأثرت سلباً في مسيرة بعضهم وشلت حركة بعضهم الآخر. وهي مسألة غيبية لا يملك الإنسان نفيها أو تأكيدها أو حتى تغييرها. وهو موقف يتواحد فيه المتدين وغير المتدين.

ومن ثم يتحول إلى مسألة واقعية تهم حياة الفرد والعائلة وبالتالي المجتمع وهي قضية الإجهاض، إذ يتحمل الرجل و المرأة اتخاذ القرار بوضع نهاية لحياة إنسانية جديدة. ودورهم هنا هو دور القاضي والجلاد. وهذا موقف إنساني يمر به المتدين وغير المتدين.

أمّا القضية الجوهرية الثالثة فتتعلق بحقيقة نظرة الكنيسة للمرأة وواقع هذه النظرة على مرّ العصور، وهل موقف الكنيسة الحالي من المرأة هو ذاته الموقف الأول؟ ولا نختلف على أن قضية المرأة هي احدى القضايا الرئيسة التي تحظى باهتمام المتدين وغير المتدين.

هذه هي القضايا الرئيسة التي طرحها امبرتو ايكو الغير متدين حالياً على محاوره المتدين وهي كما نرى قضايا جوهرية تخص وجود الإنسان ومستقبله . ويختم نيافة الكاردينال هذا الحوار بقضية تخص الجانب الروحي لدى الإنسان وهي قضية الإيمان والمعتقد وأهمية التأكيد على أن الإيمان والأخلاقيات هما وجهان لعملة واحدة. وبهذا يكون الكتاب قد غطى الجوانب الرئيسة والمهم من حياة الإنسان، وابتعد عن الدخول في التفاصيل لكيلا يشتت

اهتمام القارئ و لئلا يعقد الأمور. ونلاحظ إن التأكيد على م النقاط الأساسية وعدم الخوض في التفاصيل يحمل رسالة واضحة لشعوب الأرض بضرورة الاتفاق على الأساسيات لأن التفرقة والخلاف لا يأتي إلا من الاهتمام الزائد بالتفاصيل.

دلالات في المضمون : دور المثقف

لا تخفى شهرة امبرتو ايكو الفيلسوف المختص بفلسفة العصور الوسطى والمفكر والباحث في بطون الكتب وفي متاهات ومغاور القرون الوسطى و في سبر أغوار النفس البشرية وعلاقته بالمعتقدات الدينية والماورائية من خيال وسحر، والمكتشف للكثير من الأسرار التي ادهشت الجمهور سواء في ما يخص الفلسفة أم ما يختص بالسيميائية... واخيراً وحين بلوغه الخمسين حصل على لقب آخر وهو لقب الروائي بعد نشره لروايته الاولى "اسم الوردة 1980" التي حازت شهرة عالمية وترجمت إلى 40 لغة . ثم جاءت رواية " بندول فوكو 1988" ، وتلتها رواية "جزيرة اليوم السابق 1994" ، ثم رواية "باودولينو 2001" و"مقبرة براغ 2010" واخيرا رواية

"العدد صفر 2015". وتمتاز رواياته بالتعرض لوصف حقب تاريخية محددة من تاريخ شعبه و تميزت بنقده لثقافة المجتمع وافكاره ومواريثه البالية، ولم يتوان عن وصف الفساد الذي ساد في ايطاليا في حقب مختلفة. وقد عرض افكاره بأسلوب مباشر وصريح احياناً، وألتزم الإيحاءات والتورية في أحيان أخرى تاركاً للقارئ تأوليه الخاص كثير من الأحداث والأفكار.

ومهما كان أسلوب العرض فهو يتعرض لآفات المجتمع مؤكدا على دور المثقف ومسؤوليته في كشف الحقائق وبث الوعي بين طبقات المجتمع ولا ننسى من ذلك المقالات التي كان ينشرها عفي صفحات الصحف الإيطالية متناولاً مشاكل العصر وخصوصاً مشاكل الشباب وقد اقلقه افتقار جيل الشباب إلى المعرفة التاريخية العامة. وقد لاحظ في مقال نشرته هيرالد تريبيون في 2015م بأن الماضي بالنسبة لكثير من الشباب ما هو الاّ شيء ضبابي كبير لا يمكن تمييزه. وعبر عن خشيته من خطر أن تفقد الأجيال الشابة قوة الذاكرة الفردية والجماعية. مما دعاه إلى توجيه رسالة إلى حفيده

المراهق نشرتها مجلة الإسبرسو الإيطالية ينصحه فيها إلى تنشيط ذاكرته عن طريق حفظ قصيدة طويلة عن ظهر قلب. ونعرف جيداً إن هذه الرسالة ليست خاصة بحفيده بل هي موجهة للعالم أجمع. ونشر رسالة أخرى يتحدث فيها عن فوائد ومضار استخدام شبكة الانترنيت ووصف بمدمني هذه التقنية بأنهم كمدمني المخدرات سيأتي عليهم يوم وينبذهم المجتمع ليعيشوا في عزلة تامه عنه.

من هنا يتبين لنا دور المثقف الذي يتبناه ايكو فهو يلتزم أخلاقياً بقضاياً مجتمعه الماضية والمتمثلة بدراساته المعمقة في التاريخ ، و يلتزم بقضاياه المعاصرة. ولا يكتفي بالتفكير والتنظير وإنما يسعى لنشر فكره وتوعية المجتمع بما يجابهه من ظواهر بشتى الطرق ومنها المقالات والدراسات ومنها هذا الحوار الذي اجراه مع نيافة الكاردينال مارتيني المتجسد بهذا الكتاب الذي نقرأه اليوم. فهو يسعى مثلما دأب دائماً على عرض الأفكار والطروحات الراهنة ومن ثم اختبارها ودراستها لبيان غثها من سمينها وكل ذلك يتم على مرأى من القارئ لكي يتلقى، ليس فقط المعلومة المنشودة

والمختصة بموضوع ما، وإنما ليتعلم طريقة معالجة القضايا في مختلف نواحي الحياة ومهما بلغت صعوبتها.

دلالات في المضمون : دور المثقف

ونخلص من مواقف هذا المفكر إلى دعوة ينادي بها في كتاباته جلها من بحثية وفكرية وفلسفية إلى روائية وهي الدعوة إلى مواجهة الحقائق التاريخية ومواجهة الفساد والمفسدين، كل من موقعه وحسب تخصصه. وهو يؤكد في غير مكان من عبثية الإيمان بنظرية المؤامرة التي تسيطر على أجيال كثيرة خصوصاً مع انتشار الإشاعات والأخبار سريعاً في شبكة الانترنيت. وقد بادر إلى تولي هذه المهمة من خلال الكشف عن كثير من التزييف والتزوير في أحداث تاريخية وعلى سبيل المثال ما عرضه في روايته "مقبرة براغ" التي تعرض احداثاً تاريخية مهمة مثل حملة غاريبالدي وقضية درايفوس وغيرها من الأحداث التي وقعت في القرن التاسع عشر كالتي حدثت بين تورينو وباليرمو وباريس، وتصف الرواية عالماً من الشر المستطير يسود ويقود. ويبين لنا من خلال حبكة ظاهرها الخيال كيف يتم تلفيق التهم وتزوير الأدلة والمستندات.

ويعدّ هذا الحوار بين علماني متأصل عالم بأصول التدين ومتحول عنه هو تطبيق لدعوة المواجهة، لكنها مواجهة المثقف الدمث الذي يسعى إلى كشف الحقائق وليس لمجرد اثبات صحة مواقفه في مواجهة رجل الدين الذي كان بدوره مثالاً للتفاهم والسماحة، وقد اظهرا احتراماً وتقديرا متبادلاً.

د. عواطف السعدي

L'obsession laïque de la nouvelle apocalypse[1]

الهوس العلماني بنهاية العالم الجديدة

(1) تم نشر الحوار الرسائلي بين الكاردينال كارلو ماريا مارتيني وأمبرتو إيكو في مجلة ليبرال الايطالية بين مارس (آذار) 1995 و يناير(كانون الثاني) 1996.

Le dialogue épistolaire entre le cardinal Carlo Maria Martini et Umberto Eco a été publié dans la revue italienne Liberal entre mars 1995 et janvier 1996.

العزيز كارلو ماريا مارتيني

.« لا ترى أيّ نوع من قلة الاحترام في مناداتي لك باسمك الصريح من دون الإشارة إلى الزي الذي ترتديه. واعتبره تكريماً لك و نوع من التصرف الحذر. وصفه تكريماً، لأنني كنت دائم الانبهار بالطريقة التي يستعملها الفرنسيون، عند اجراء مقابلة مع كاتب ما، أو فنان ما، أو شخصية سياسية ما، بتجنبهم استعمال الألقاب المختزلة، من نوع أستاذ، أو سمو، أو وزير. إذ يكون رأس مال بعض الاشخاص في أسمائهم التي يذيلون بها افكارهم. وبذلك يخاطب الفرنسيون أولئك الأشخاص أصحاب الأسماء التي تعلو وتسمو على كل لقب بقولهم " مرحبا، جان ماريتان" أو " قل لي، كلود ليفي شتراوس". إنه اعتراف بوجود السلطة حتى وإن لم يكن الشخص المعني قد اصبح سفيراً أو أكاديميا. وإذا كان

عليّ الاستشهاد بالقديس أوغسطين (وهنا ايضاً لا تعدني مبالغاً بالاستخفاف)، فلن ادعوه ب " السيد أسقف مدينة هيبو" (فقد عرفت هذه المدينة عدداً من الأساقفة من بعده)، بل سأدعوه " أوغسطين الطاغاستي"[1].

وقلت أيضا تصرف حذر، في الواقع، لأن الطلب الذي وجهته هذه المجلة لي ولك – بتبادل الآراء بين علماني وكاردينال– قد يبدو محرجاً. فقد يتبادر إلى الأذهان أن العلماني يحاول دفع الكاردينا للتحدث كأمير للكنيسة وكراعي للأرواح، وقد يكون فيه جانب كبير من القمع سواء للشخص الذي يوجه إليه السؤال أم الشخص الذي يستمع للإجابة. والأفضل أن يظهر هذا الحوار – في إطار نوايا المجلة التي دعتنا لإجرائه - لكي يكون نوعاً من تبادل الأفكار بين رجال أحرار. من ناحية أخرى، وأنا أخاطبك

(1) القديس أوغسطينوس (354 -430) كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي -لاتيني ولد في طاغاست حاليا سوف أهراس، الجزائر. يعد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديسا وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الاوغسطيني. (المترجمة عن ويكيبيديا)

بهـذه الطريقـة ، أود أن أذكـر بأنـك تُعـد أسـتاذا للحيـاة الفكريـة والأخلاقية ، حتى من قبـل القرّاء الـذين لا يشـعرون بانتمـائهم إلى أيّ سلطة أخرى سوى سلطة العقل وحدها.

بعد حسم قضايا اللياقة بقي لـدينا حسـم قضـية الأخـلاق الـتي ينبغي التركيز عليها على ما اعتقـد ، فجـوهر أيّ حـوار يعتـزم إيجاد أرضية مشتركة بـين عـوالم الكنيسـة الكاثوليكيـة وعـوالم العلمانيـة (يبدو لي من غير الـواقعي اسـتهلال هـذه الصـفحات بنقـاش حـول **(الأبن)**[1] *Filioque*). ولكن هنا أيضاً ، ولأنني مـدعو لبـدء الحـوار وفتح النار(وهي دائماً مهمة صعبة للغاية) ، فلا اعتقد من الواجـب علينـا الخـوض في قضـايا لهـا علاقـة بالأحـداث الراهنـة والـتي ستواجهها مـن دون شـك مواقـف متعارضـة جـداً بشـكل فـوري ، فمن الأفضل النظر إلى أعلى وعرض الموضوع ، بالرغم من إنه من أحداث الساعة ، إلا الذي تمتد جـذوره تمتـد بعيـداً جـداً ، مما يجعلـه

(1)يشير الى الصراع اللاهوتي الذي قسم الغرب والشرق المسيحي ، ويتعلـق الاختلاف حول سر روح القدس في داخل الثالوث. (المترجمة : عن ويكيبيديا)

مصدر إغراء، وخوف وأمل كل الذين ينتمون إلى العائلة الإنسانية على مدى الألفي عام الماضية.

لقد اطلقت الكلمة الجوهرية، ونحن لم نعد بعيدين عن نهاية الألفية الثانية، وأتمنى أن يكون الأمر ما يزال صحيحاً من الناحية السياسية في أوروبا بشأن حساب السنوات المهمة انطلاقاً من حدث كان له الأثر العميق في تاريخ كوكبنا– وهو الشيء الذي يتفق عليه الناس كلهم، من أتباع الديانات الأخرى ومن الذين لا ينتمون. إن اقتراب تحقق موعده لا يخلو من دعوة لاستحضار الصورة التي هيمنت على الفكر لما يقارب العشرين قرنا ونقصد بذلك فكرة : نهاية العالم.

تخبرنا الترجمة التاريخية المعتمدة للكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية بأن نهاية الألفية الأولى كانت مسكونة بفكرة نهاية العالم. ورسخ المؤرخون بشكل حقيقي أسطورة "أهوال العالم الألف" المشؤومة، ومنظر الحشود التي تنوح بانتظار فجر لن يشرق ابداً. إلا إنهم يخبروننا أيضاً إنّ فكرة النهاية قد سبقت هذا اليوم الموعود

بقرون عدة والشيء الغريب إنهم قد نجوا من هذه النهاية : وهو ما أدى إلى ظهور جماعة المليارية[1] للألفية الثانية، التي لم تكن حكراً على الحركات الدينية سواء أكانوا ملتزمين أو زنادقة : في الواقع تم تعريف المليارية على أنها حركات سياسية واجتماعية علمانية بل والحادية، غرضها تعجيل نهاية الأزمنة، ليس لخلق مدينة الله وإنما إيجاد المدينة الدنيوية الجديدة.

سفر الرؤيا للقديس يوحنا هو كتاب مصدوع ومخيف وكذلك المجموعة الرؤيوية المُحرفة الملحقة به ـ مُحرفة بالنسبة فيما يتعلق بمجموعة شرائع الكنيسة، والموثوق منها بما تحمله من مؤثرات وانفعالات ومخاوف وجيّشان. يمكن قراءة هذا النص على أنه بشرى، ولكن يمكن أن يكون نذيراً في نهاية المطاف، وبذلك كانت إعادة كتابته مرات ومرات على مرّ الزمن بانتظار العام م2000م،

(1) المليارية كلمة من أصل لاتيني تعني "تحتوي ألفا" وهي مذهب ديني يعتقد بالملك الارضي للمسيح بعد غلبته على المسيخ الدجال وتعتقد بيوم الحساب. وقد تكون حركة سياسية أو اجتماعية تعتقد بأن هناك تغيير اجتماعي كبير سيحدث في المستقبل. (المترجمة)

وحتى أولئك الذين لم يقرئوه ابداً لم يعد بالنسبة لهم تلك الأبواق السبعة، ولا أمطار البَرَد، ولا البحر الذي يصير دماً، ولا تساقط النجوم، ولا الجراد المنبعث من دخان بئر الهاوية، ولا جيوش يأجوج ومأجوج، ولا الدابة التي تخرج من قاع البحار؛ بل غدت المخلفات النووية التي لا تخضع للرقابة ولا يمكن ضبطها، والأمطار الحامضية، وغابات الأمازون الزائلة، وثقب طبقة الأوزون، وهجرة الجموع الفقيرة الممزقة التي تطرق، بعنف احياناً، أبواب المُترفين، والجوع في القارات كافة، والأوبئة الجديدة التي لا شفاء منها، وتخريب التربة المُنظم، وتغييرات المناخ، والجليد في طريقه للذوبان، والعبقرية الوراثية التي ستقوم بإنتاج نسخ عنا؛ أما علم البيئة الصوفية فيدعو إلى ضرورة انتحار الإنسانية التي يجب أن تهلك في سبيل إنقاذ الأجناس التي كادت أن تبيدها وكذلك انقاذ غاياGaia (الأرض الأُم) التي افسدتها وخنقتها.**(من شخصيات الميثولوجيا الاغريقية، الأم الأرض. تطابق في الميثولوجيا الرومانية الإلهة تِرّا.(Terra)**

نعيش اليوم (بالطريقة الخرقاء تلك ؛ من التشتت الذهني التي فرضتها علينا وسائل الاتصال) ونحن مرعوبين من النهاية وبصراحة نعيش ذلك بروح الأكل والشرب والضمائر الميتة *erasmorie-mur edamns, bibeamus*، ونحن نحتفل بنهاية الايديولوجيات (التنظيرات) والتضامن في دوامة نزعة استهلاكية لا مسؤولة. كلّ منّا يعلب بخيال نهاية العالم ممارساً طرد الأرواح الشريرة بشكل لا واعي للدرجة التي يخافه ويعرضه على الشاشات بصيغة عرض دموي متأملاً بذلك جعله غير حقيقي. إلا إن قوة الخيال تعتمد بالذات على لا واقعيتها.

وأجرؤ على القول أن فكرة نهاية الأزمنة هذه أكثر ملائمة للعالم العلماني منها للعالم المسيحي. بعبارة أخرى، يجعل العالم المسيحي من فكرة نهاية العالم موضوعا للتأمل إلا إنه يتصرف كما لو أنه من الحكمة وضعه في بُعدٍ غير قابل للقياس بوساطة التقويمات ؛ ويتظاهر العالم العلماني بتجاهله، لكنه في جوهره يشكل هاجساً بالنسبة له. لكن هذا لا يعد تناقضاً، فهو ليس سوى تكرار لما يحدث خلال الألف سنة الأولى.

لن أُسهب في الحديث عن مسائل تأويل الكتاب المقدس التي تعرفونها بشكل أفضل مني، لكني أود تذكير القرّاء بأن فكرة نهاية الأزمنة برزت من أحد المقاطع الأكثر إبهاما في انجيل يوحنا، الاصحاح رقم 20، الذي يجعلنا نفهم "السيناريو" الآتي : مع التجسد والفداء وخلاص البشر على يد المسيح، يكون الشيطان محبوساً ، لكنه يعود بعد ألف سنة ، وعندئذ ستكون المعركة النهائية بين قوى الخير والشر تتوجها عودة السيد المسيح وقيام يوم الحساب. بلا أدنى شك يتحدث يوحنا عن ألف سنة، إلا أن بعض الآباء كانوا قد كتبوا سلفاً أن الألف سنة عند الله هي يوماً واحدً أو أن يوماً واحداً يعادل ألف سنة، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نأخذ العدد بمعناه الحرفي، أما بالنسبة لأوغسطين، فهو يفضل المعنى " الروحي" في قراءة هذا المقطع. فالمليارية [4] ومدينة الله على حد سواء كلاهما ليسا بالأحداث التاريخية ابدا وإنما صوفية، وإن جبل هرمجدون ليس في هذا العالم، ومن المؤكد أننا لا ننكر أنه في يوم ما يمكن للتاريخ أن يكتمل عندما ينزل المسيح ليحكم الأحياء

والأموات ؛ ومع ذلك، لم يتم التأكيد على *نهاية* القرون وإنما على ***مسيرتها*** ، الخاضعة للفكرة التنظيمية لقيامة المسيح (عودة المسيح) Parousie (وليس على موعد الاستحقاق التاريخي).

وتبعا لذلك، ليس القديس أوغسطين هو وحده من يمنح العالم فكرة التاريخ بوصفه مسيرة باتجاه الأمام ، وإنما مذهب آباء الكنيسة المتضمن كل االدراسات المتعلقة بهذا المذهب[1] patristique ، وهي فكرة غريبة عن الوثنية. ويدين كلا من "هيغل Hegel" و "ماركس Marx" كثيرا لهذه الفكرة الأساسية فضلاً عن "تيلهارد دو شاردان Teilhard de Chardin" الذي سيكمل هذه الفكرة. إن المسيحية هي من خلقت التاريخ ، وإن المسيخ الدجال الحديث هو الذي من يستنكره ويعده مرضا. ويمكن للتاريخانية[2]

(1) الآبائيات ويعرف كذلك ب علم الآباء أو الباترولوجيا وهو فرع من علم اللاهوت يهتم بدارسة كتابات آباء الكنيسة الأوائل في الفترة بين القرنين الثاني والخامس الميلادي. (المترجمة عن ويكيبيديا)

(2) التاريخانية هي مذهب فلسفي يرى أن المعرفة ، الفكر أوقيم المجتمع ترتبط بالسياق التاريخي. (المترجمة)

العلمانية أن تفهم هذا التاريخ بوصفه وسيلة لبلوغ الكمال الأبدي، من ناحية أن الغد يُحسن من أوضاع اليوم، دائما ومن دون قيد أو شرط، وأن الله، يتشكل، على مرّ الزمن بل ويمكننا القول أنه يتهذب، ويُثري ذاته بذاته. إلا أن هذه ليست ايديولوجية العالم العلماني برمته، الذي كان قادراً على رؤية انحدارات وحماقات التاريخ؛ ومع ذلك هناك رؤية مسيحية جوهرية للتاريخ في كل مرة نقطع فيها هذا الطريق تحت مظلة الرجاء. إذن، ومع كل الامكانيات بمحاكمة التاريخ ومعرفة اخطائه، فالمرء يبقى مسيحيا بشكل اساس، حتى عندما نتحدث مع "مونييه Mounier"[1] عن التفاؤل المأساوي أو عندما نتحدث مع "غرامشي Gramsci"[2] عن تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة.

---

(1) هوجان جوزيف مونييه الذي ولد في عام1758 وتوفي في باريس عام 1806 محامي ورجل سياسي فرنسي عده كثير من الكتاب مجسدا لليمين الليبرالي الحر.

(2) **أنطونيو غرامشي** فيلسوف ومناضل ماركسي إيطالي، ولد في بلدة آليس بجزيرة ساردينيا الإيطالية عام 1891، وهو الأخ الرابع لسبعة أخوات. تلقى دروسه في كلية الآداب بتورينو حيث عمل ناقدا مسرحيا عام 1916. انضم إلى الحزب الشيوعي الإيطالي منذ تأسيسه وأصبح عضوا في أمانة الفرع الإيطالي من الأممية الاشتراكية.

أعتقد ، هناك مليارين يائسون في كل مرة تعد نهاية العالم نهاية حتمية ، ويتخلى الأمل عن مكانته إلى احتفالية بنهاية التاريخ ، أو إلى الدعوة للعودة إى **تقليد** لازمني عفا عليه الدهر ، إذ لا يمكن لأي تأثير للإرادة أو أي تأمل ــ ولا أقول عقلياً وإنما معقولاً ــ من هنا نشأت بدعة الغنوصية[1] (بما في ذلك أشكالها العلمانية) والتي تعد العالم والتاريخ ثمرة خطأ ما ، ويمكن لبعض النخب فقط ، ، بعد أن يدمروا بعضهم البعض الآخر ، أن يفتدوا الله بذاته ؛ من هنا نشأت صيغ مختلفة لأيديولوجية الإنسان الخارق ، التي على وفقها ، فقط أتباع العرق أو الطائفة المتميزة

(1) الغنوصية أو العرفانية هو مصطلح حديث يجمع الديانات القديمة التي انعزل أتباعها عن العالم المادي الذي خلقه خالق الكون المادي ، وانغمسوا في العالم الروحاني.تأثرت العديد من الديانات القديمة بالأفكار الغنوصية التي تقول بأن **الغنوص**) تفسّر بمعاني مختلفة كالمعرفة أو التنوير أو **الخلاص والتحرر** أو التوحد مع الله) يمكن الوصول إليها من خلال ممارسة الخير والزهد في المال حتى **الفقر** ، **والتبتّل** ، والسعي وراء **الحكمة** من خلال مساعدة الآخرين ولكنهم اختلفوا في كيفية تطبيق تلك الممارسات. وفي الغنوصية ، يتمثل عالم خالق الكون المادي في **العالم السفلي** الذي يرتبط بالمادة والجسد والزمن ، فهو عالم سريع الزوال. أما عالم الله فيتمثل في العالم السماوي العلوي الذي يسمو بالروح إلى الكمال ، وعالم الله السماوي أزلي وليس جزءً من المادية.(المترجمة عن ويكيبيديا)

يتمكنون من الاحتفال بمحارقهم المستعرة. على المسرح البائس للعالم وللتاريخ،

لا يمكننا تقبل الحقائق الدنيوية والاعتقاد ـ بمحبة ـ أنه ما يزال هناك مكان للرجاء إلا من خلال وجود حس باتجاه التاريخ (حتى لو لم نعتقد بعودة المسيح).

هل هناك مفهوم للأمل (ولمسؤوليتنا ازاء المستقبل) يمكن أن يكون مشتركاً بين المؤمنين وغير المؤمنين؟ على ماذا يمكن يتأسس ؟ ما هي الوظيفة النقدية التي تتبناها فكرة نهاية لا تنطوي على عدم الاكتراث بالمستقبل وإنما بالدعوة المستمرة ضد اخطاء الماضي؟.

وعلى العكس من ذلك، حتى من دون التفكير بالنهاية، ولكن من خلال القبول بفكرة على أنها قريبة، فقد يكون مجرد جلوسنا أما شاشتنا الصغيرة (ونحن محصنين تماما خلف متاريسنا الالكترونية) ننتظر من يسلينا ، في الوقت الذي تمضي فيه الأمور إلى التلاشي. ومن بعدنا الطوفان.

Umberto Eco *mars 1995*

L'espérance fait de la fin « une finalité"

يجعل الرجاء من النهاية "غاية"

العزيز أمبرتو أيكو،

أقبل عن طيب خاطر مخاطبتك لي بإسمي من دون ألقاب، وأحذو حذوك في هذا، فلم يعلن الانجيل ترحيبه بالألقاب ("أما أنتم، فلا تسمحوا بأن يدعوكم أحد : "يا مُعلِم" [...] ولا تدعوا أحدا على الارض يا أبانا [...] ولا تسمحوا بأن يدعوكم أحد يا "سيد" " انجيل متى 23 : 8، 9، 10) [**مع أن في وسط الرسالة مذكور رقم 8 فقط (المترجمة)**] وبذلك يصبح بشكل حتمي إن ما يدور بيننا هو كما تقول، تبادل أفكار فيما بيننا بحرية تامة من دون الاصرار على مواقف مُسبقة أو التمسك بأدوارنا. حوارٌ مثمر، هذا ما آمله، إذ لا بد من تحديد اهتماماتنا المُشتركة وتوضيح اختلافاتنا بإذابة كل ما يفرقنا فعلا الى أقصى حد ممكن.

واتفقت مع فكرة "السعي للارتقاء" في هذا الحوار الأول.

من المؤكد أن المشكلات الأخلاقية هي تلك التي تهمنا في الوقت الراهن. إلا أن أكثر الأحداث تأثيراً على واقع حال الرأي العام (يتبادر إلى ذهني هنا تلك الأحداث المتعلقة بأخلاقيات علم الأحياء) هي غالبا أحداث مرتبطة ب "الحدود"، والتي يجب تناولها أولا من زاوية علمية قبل إطلاق احكام اخلاقية متسرعة يمكنها أن تباعدنا بسهولة. وكبداية، يبدو لي من المفيد تحديد الآفاق الواسعة التي تتشكل احكامنا بداخلها. إذ نلتقط أسباب هذه التقييمات العملية المتضاربة .

فأنت تعرض إذن مشكلة الأمل وبالتالي مشكلة مستقبل الإنسان مع اقتراب الألفية الثانية. وقد ذكرت تلك الصور الرهيبة لنهاية العالم والتي عادة ما تمثل الحشود المرتعشة خوفاً على اعتاب الألفية الأولى. حتى وإن لم يكن صحيحا، إلا إنه موجود، لان الخوف من المستقبل موجود، وأن المليارين يتجددون على مر العصور، سواء على هيئة طوائف أم على أولئك المليارين غير

المباشـرين أولاء الـذين يغـذون تحركـات اليوطوبيـا الكـبرى بعمـق. فـاليوم تتسـارع التهديـدات البيئيـة لتحـل محـل الأوهـام السـائدة في الماضي وتجعلها طبيعتها العلمية مقلقة.

مـع كـل هـذا ألا يتوجـب علينـا أن نقـرأ "سـفر الرؤيـا" وهـو الكتاب الأخير من العهـد الجديـد؟ هـل لنـا أن نعتـبره خـزان صـور مرعبة تستحضر نهاية مأساوية وشيكة ؟ فعلـى الـرغم مـن التشـابه الموجود بين العديد من صفحات "سفر الرؤيا" والمسمى جزء يوحنـا والكثير من الكتابات المريعـة لتلـك العصـور، إلا أن مفتـاح قراءتـه مختلف. فهو يبين لنا من خلال سياق العهد الجديد (وعلى مضـض) أين يمكن إدراج هذا الكتاب.

سأحاول توضيح ما أريد أن قوله. في نصوص نهايات العـالم، الموضوع المهيمن عموماً هو الهروب من الـزمن الحاضـر والاحتمـاء بزمن مسـتقبلي مـن شـأنه أن يخلـق بقـوة، مـن خـلال قلبـه تراكيـب العالم الراهنة، نظاماً من القيم النهائية المتطابقة مع آمـال وتوقعـات مؤلـف الكتاب. وراء هذا الأدب المروع هناك مجموعـات مـن النـاس

المقهورين بثقل المعاناة الدينية والاجتماعية والسياسية، لا يجدون خلاصهم في خطة عمل فورية بل يسقطون أنفسهم في انتظار زمن تدك فيه القوى الكونية الأرض لتسحق أعدائهم. بهذا المعنى، دعنا نقول، فإن اي كتابة عن نهاية العالم تحمل معنى طوباوياً كبيراً، واحتياطيا كبيرا من الأمل، لكنه يمشي جنبا الى جنب مع استسلام مرير للحاضر.

يمكن للمرء أن يجد شيئا من هذا لقبيل وراء كل وثيقة تم دمجها فيما بعد في كتاب "سفر الرؤيا" *l'Apocalypse* الحالي. ولكن بمجرد قراءة الكتاب بمنظور مسيحي وفي ضوء الاناجيل، تتغير نبرته ومعناه. فلا يعود إسقاطا لإحباط الحاضر، وإنما امتدادا لتجربة الامتلاء أي بعبارة اخرى لتجربة "الخلاص" الذي قدمته الكنيسة في وقت مبكر. فلا تستطيع ولن تستطيع أي قوة بشرية أو شيطانية تعترض أمل المؤمن.

في هذا المعنى، أتفق معك عندما تقول أن فكرة آخر الزمان هي اليوم أنموذجية اكثر للعالم العلماني منها للعالم المسيحي.

لقد تعرض العالم المسيحي بدوره الى هزات مُروعة يتعلق جزء منها بالآيات المبهمة في "سفر الرؤيا" 20 : " فأمسك التنين، تلك الحية القديمة، أي ابليس أو الشيطان، وقيده لألف سنة. [...] ورأيت نفوس الذين سقطوا قتلى [...] فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة" فقد فسر أحد تيارات التقليد القديم هذه الآيات حرفياً، إلا أن هذه المليارية الحرفية لم يكن لها أنِ تُتلى في الكنسية الكبرى. وانما ساد المعنى الرمزي لهذه النصوص : فالمقصود هنا كما في صفحات أُخر من سفر الرؤيا هو نوع من إسقاط في مستقبل هذا الانتصار الذي شعر به المسيحيون الأوائل وعاشوه في زمنهم الحاضر بفضل رجائهم.

وهكذا يُنظر إلى التاريخ بشكل أكثر وضوح وكأنه خطوة نحو هدف يقع خارجاً عنه وليس متأصلاً فيه. ويمكننا التعبير عن ذلك من خلال عرض هذه المعتقدات الثلاث : 1) التاريخ له معنى واتجاه، فهو ليس تراكماً لحقائق عبثية وغير مجدية. 2) وهذا المعنى ليس متأصلا بشكل تام وإنما يظهر فيما وراء ذاته، فهو اذن ليس موضوعاً للحساب وإنما للرجاء. 3) هذا الرأي لا يُضعف بل على

العكس يقوي الشعور بالأحداث الطارئة : إذ تمثل المكان الأخلاقي الذي يتحدد فيه المستقبل المدروس تاريخياً (métahistorique ميتاهستوري[1]) للمغامرة البشرية.

أدرك أننا قلنا حتى الآن الكثير من الأشياء المتشابهة بأساليب مختلفة وبالرجوع إلى مصادر مختلفة. يسعدني جداً هذا الاتفاق على "المعنى" الذي يحمله التاريخ وهو (واقتبس هنا منك)" يمكننا تقبل الحقائق الدنيوية والاعتقاد ـ بمحبة ـ أنه ما يزال هناك مكان للرجاء."

بالمقابل أجد صعوبة أكبر في الاجابة عن السؤال عمّا إذا كان هناك "مفهوم" للرجاء (ولمسؤوليتنا تجاه المستقبل) يمكنه أن يكون مشتركاً بين المؤمنين وغير المؤمنين. لابد من وجوده بطريقة أو بأخرى بشكل عملي، لأننا نرى المؤمنين وغير المؤمنين يعيشون الحاضر بإضفاء معنىً عليه، وبالالتزام به بمسؤولية. يظهر ذلك

(1) La **métahistoire** يشمل أساسا نوعين من العلوم التاريخة : تاريخ التاريخ ودراسة معنى التاريخ.

عندما يلتزم المرء طوعياً وعلى مسؤوليته الخاصة، باسم القيم العليا وبلا مقابل منظور. وهذا يؤكد وجود أساس عميق ينهل منه المؤمنين وغير المؤمنين من مفكرين ومسؤولين من دون التمكن من الاتفاق على اطلاق تسمية موحدة له. ففي اللحظة الدرامية للفعل، تحمل الأشياء أهمية مماثلة للأسماء وليس من المفيد دائماً طرح مشكلة المسميات عندما يتعلق الأمر بالدفاع وتعزيز القيم الأساسية للبشرية.

لكن بطبيعة الحال، بالنسبة للمؤمن، الكاثوليكي تحديداً، فإن مسميات الأشياء لها أهميتها لأنها ليست اعتباطية وإنما هي ثمرة الذكاء والفهم اللذان، إذا كانا مشتركْين مع شخص آخر، يؤديان إلى الاعتراف بشكل نظري بالقيم المشتركة. وأعتقد مازال لدينا شوط طويل لنقطعه، شوط يُدعى اختبار الذكاء والشجاعة لتحليل الأشياء البسيطة سوياً. وكثيراً ما قال يسوع في الاناجيل : "من كان له أذنان تسمعان فليسمع [...] أما أدركتم بعد وفهمتم ؟ أعمت قلوبكم الى هذ الحد؟" (انجيل مرقس4، 9 ؛ 8، 17، الخ) فهو لا يحتاج إلى نظريات فلسفية أو إلى صراعات دراسية وإنما إلى

هذا الذكاء الذي يتمتع به كل واحد منا ليفهم معنى الأحداث وليرشدنا. إن أقل تقدم في الاتفاق حول الأمور الرئيسية البسيطة يشكل خطوة للأمام في تقاسم أسباب الرجاء.

وقد ورد في نهاية رسالتك استفزاز صدمني، إذ تساءلت : "ما هو الموقف النقدي الذي تتباه فكرة النهاية ولا ينطوي على عدم الاكتراث بالمستقبل وإنما بالدعوى المستمرة ضد اخطاء الماضي؟" فلا اعتقد إن فكرة النهاية الوشيكة يمكنها في حد ذاتها مساعدتنا على الحكم بشكل نقدي حاسم على ما مضى. إذ ستكون على الأكثر مصدراً للخوف، والفزع، والانطواء، أو الهرب باتجاه مستقبل "آخر" مثلما هو الحال في الأدب المتعلق بسفر الرؤيا على وجه التحديد.

ولكي تجعلنا فكرة النهاية متنبهين إلى المستقبل و إلى الماضي الذي نحن بحاجة إلى فهمه بشكل حاسم، فمن الضروري لهذه النهاية أن تكون "غاية" وأن تمتلك طابع القيمة النهائية الحاسمة والقادرة على تسليط الضوء على جهود الحاضر واضفاء معنىً

عليه. فإذا كان للحاضر معنى فيما يتعلق بالقيمة النهائية المعترف بها والمقدرة والتي يمكنني أن أتوقعها من خلال اثباتات الذكاء والاختيار المسؤول، فسيتيح لي التفكير في أخطاء الماضي دون خوف. أعلم أني أسير في الطريق، وإني ألمح جزءاً من الغرض، على الأقل في قيمه الأساسية، وأعلم إنه منحني فرصة تقويم ذاتي وتحسينها. وقد بينت التجربة إن المرء لا يتوب إلا من شيء يرى امكانية تحسينه. فمن لا يعترف بذنوبه كما هي تبقى لصيقة به لأنه لا يرى الأفضل أمامه ويتساءل لماذا يجب عليه ترك ما هو فيه.

يبدو لي أن هذه هي كل الوسائل لتصريف كلمة " الرجاء" والتي لم أجرؤ على كتابتها بحرف كبير لولا أنك قمت بذلك قبلي فحذوت حذوك. وعليه ليس هذا هو الوقت الذي نترك انفسنا لتخدير التلفاز بانتظار النهاية. فلا يزال هناك الكثير ياكارلو Carlo للقيام به معا.

Carlo Maria MARTINI
mars 1995

كارلو ماريا مارتيني
آذار 1995

Quand commence la vie humaine ?

متى تبدأ الحياة الانسانية ؟

العزيز كارلو ماريا مارتيني،

ها قد حان موعد نقاشنا الفصلي. إذ أن الغرض من الرسائل المتبادلة هذه هو تحديد أرضية مشتركة للنقاش بين العلمانيين والكاثوليك (فيها تتحدث بصفتك مثقفا ومؤمنا، للتذكير فقط، وليس راعياً للكنيسة). ولكني أتساءل إن كان علينا ايجاد نقاط اتفاق فيما بيننا فقط. فهل سيكون مجدياً حقاً أن يسأل أحدنا الآخر عن عقوبة الإعدام أو عن الإبادة الجماعية، لكي نكتشف، وفق قيم معينة، وجود توافق عميق فيما بيننا ؟ فإن كان لا بد من اجراء حوار، فيجب أن يتم في تلك الحدود التي لا تشهد أيّ توافق. ولنذهب أبعد من ذلك : فالعلماني على عكس الكاثوليكي ،

لا يؤمن بـ"الحضور الحقيقي"[1]، وهذا لا يشكل مصدر سوء فهم بل احتراماً متبادلاً بين المعتقدات الخاصة بكل منّا. وتكمن النقطة الحرجة في إن يؤدي الاختلاف إلى صدامات وسوء فهم أعمق ومن ثم تنعكس على المستوى السياسي والاجتماعي.

وواحدة من هذه النقاط الحرجة هي الدعوة إلى الاهتمام بالحياة في مواجهة التشريعات المتعلقة بالإجهاض.

إن التعرض لمسائل بهذه الأهمية، يتم من خلال وضعها على طاولة النقاش تجنبا لأيّ التباس : إذ يجب على السائل تحديد المنظور الذي يتم من خلاله توجيه السؤال وكذلك ما الذي ينتظره من محاوره. وإليك حكمي الأول : فلم يحدث معي ابداً أن نصحت امرأة حملت مني أن تجهض حملها أو وافقتها على قرارها هي بأن تجهض نفسها. فلو كان هذا قد حدث معي لكنت بذلت ما

(1)الحضور الحقيقي للمسيح : أي وجود السيد المسيح في القربان المقدس، إذ يفهم المسيحيون دائمًا أن الخبز والخمر ليسا خبزًا وخمرًا عاديين بل هما جسد ودم المسيح حقيقة. وفي هذا السر يكون المسيح حاضراً مع كنيسته، كما كان حاضراً وسط شعبه في العهد القديم.

بوسعي لإقناعها بالمحافظة على هذ المخلوق مهما كان الثمن الذي يجب أن ندفعه سوياً. فأنا أرى في الحقيقة إن ولادة طفل هو أمر مثيرٌ للإعجاب، بل معجزة طبيعية علينا قبولها. ومع ذلك لا أعطي لنفسي الحق فرض موقفي الأخلاقي (حالتي العاطفية، أو قناعتي الفكرية) على أي شخص. فأنا اعتقد أن هناك أوقات عصيبة نمر بها جميعاً لا نعرف فيها كيف نتصرف (لذا لن أخوض بالنموذجية typologie ولا بمحاسبة الضمير) من ناحية حق المرأة في اتخاذ قرار مستقل يتعلق بجسدها وبمشاعرها وبمستقبلها.

ومع ذلك، هناك من يطالب بحق الحياة : فكما لا يمكننا السماح للإنسان، تحت مسمى حق الحياة، بقتل نظيره أو تدمير ذاته (لن أُورط نفسي في نقاش حول حدود الدفاع الشرعي)، لا يمكننا كذلك السماح لكائن من كان بقطع مسيرة حياة قد بدأت.

وإليك حكمي الثاني : لن يكون مناسباً هنا أن أطلب منك التعبير عن رأيك أو عن رأي سلطة الكنيسة. وأفضل دعوتك للتعليق على بعض الأفكار التي سأطرحها عليك، وتأتي لنا

بتوضيحات حول حالة العقيدة. فعندما ترفرف راية الحياة فهي لا تعدم استثارة جميع العقول. وأحاول القول تحديداً، عقول أولئك غير المؤمنين، إلى حدّ الملحدين الأكثر " اخلاصا" لأنهم، وبما أنهم لا يؤمنون بأيّ دعوى ما ورائية، يجدون في فكرة الحياة وفي الإحساس بالحياة القيمة الوحيدة والمصدر الوحيد لعلم الاخلاق الممكن. ومع ذلك فليس هناك مفهوماً أكثر ضبابية وأكثر التباساً أو كما يسميه علماء المنطق اليوم أكثر *غموضًا*. وقد سبق أن أكده القدماء إذ عرفوا الحياة على أنها تكون حيثما تتجلى روح عاقلة، ولكن ايضاً تكون حيث تكون هناك روح حسية أو روح نباتية. واليوم يذهب بعضاً ممن يقدمون انفسهم على أنهم بيئيون اصلاء إلى أن الأرض الأُم لها حياة بكل ما فيها من جبال وبراكين، ويتساءلون في الوقت ذاته عما إذا كان من الأفضل إزالة الجنس البشري في سبيل انقاذ الكوكب المهدد بما يسمى الجنس البشري. وهناك النباتيون الذين ينتهكون حرمة حياة النبات في سبيل حماية حياة الحيوان. وهناك النساك الشرقيون الذين يكممون أفواههم لكي لا يبتلعوا أو يحطموا الجسيمات الدقيقة اللامرئية.

في أحد المؤتمرات الذي عقد مؤخراً، ذكر عالم الأنثروبولوجيا الأفريقي هاريس مامل -فوت "Harris Memel-Fote" بأن التصرف الطبيعي للعالم العربي حتى الآن هو *"الكوزموفاجي* cosmophagie"[1] (وهو مصطلح لطيف : أي أننا كنا وما نزال نمتلك ميلا لالتهام الكون)، والآن يجب علينا أن نستعد (بعض الحضارات قد قامت بذلك) إلى أي شكل من أشكال *التفاوض* : الغرض منه معرفة ما يجب على الإنسان تقديمه للطبيعة لكي يعيش وما الذي يتجنب فعله في الطبيعة لكي تعيش. فوجود التفاوض يعني عدم وجود قاعدة ثابتة حتى الآن، نحن نفاوض لإيجاد قاعدة. حسناً، اعتقد، بعيداً عن المواقف المتطرفة، أننا مازلنا نتفاوض (وغالبا بطريقة أكثر عاطفية منها عقلانية) حول مفهومنا لاحترام الحي

(1) مصطلح اطلقه العالِم الانثروبولوجي للتعبير عن تدمير جميع الابعاد اللابشرية ويقصد بها استيلاء القوى على جميع المساحات في الكوكب واستغلال مواردها.(م)

أكثرنا يصاب بالرعب من فكرة ذبح الخنزير، لكننا نأكل لحم الخنزير دون أن يطرف لنا جفن. لن أقوى أبداً على سحق الدودة كثيرة الأرجل في مرج إلا أنني اتصرف بعنف مع البعوض. يمكنني التمييز بين النحلة والدبور (مع أن كليهما يمكن أن يشكل خطراً عليّ) إلا إنني بلا شك اعترفت للأولى بفضائل أنكرتها على الثاني. ما أريد التأكيد عليه هو إن كان مفهومنا للحياة لدى الحيوان والنبات فيه تفاوت، فإن مفهومنا لحياة الإنسان ليس كذلك. ومع ذلك فإن المسألة قد أرَقت اللاهوتيين والفلاسفة لقرون طويلة. فلو بدا قرد عن طريق المصادفة، قد تم تدريبه بشكل ملائم (أو تم تعديل جيناته الوراثية)، قادراً، لا أقول على الكلام، ولكن على أن ينقر على لوحة مفاتيح الكمبيوتر بمقترحات سديدة، مجرياً بذلك حواراً، ومُظهراً بعض التأثر وبعض التذكر، مبدياً قابلية على حل المسائل الحسابية وقابلية على الاستجابة للمبادئ المنطقية للشخصية وللمتناقضات، هل لنا أن نعد هذا القرد إنسانا ؟ وهل نعطيه حقوقا مدنية ؟ هل نعامله كبشر لأنه يفكر ويحب ؟ لكننا لا

نعدّ بالضرورة كل من يحب إنسانا ، بما أننا نقتل الحيوانات مع معرفتنا بأن الأُم "تحب" صغارها.

متى تبدأ الحياة الإنسانية ؟هل يوجد (اليوم ومن دون الرجوع إلى عادات وتقاليد سكان اسبرطة [1]) من غير المؤمنين من يمكنه التأكيد على أن كائناً ما ليس إنسانا إلا عندما تقدِمه الثقافة للإنسانية بعد أن تزوده بلغةٍ وبتفكير مفصلي (ومثلما يرى القديس توما فأن الحوادث الخارجية فقط هي التي يمكن أن نستدل من خلالها على وجود العقلانية وبالتالي على واحدة من الأختلافات المميزة للطبيعة البشرية) لدرجة أن قتل طفل حديث الولادة لا يعد جريمة لمجرد انه "رضيع" تحديداً ؟ لا اعتقد ذلك. فكل العالم يعد حديث الولادة الذي مازال مرتبطاً بحبله السري إنسانا. إلى أي مدى يمكننا العودة إلى الوراء ؟ هل عندما تكون الحياة والإنسانية في السائل المنوي (بل حتى في النظام الوراثي)، هل إن ضياع السائل المنوي يُعدّ جريمة تعادل القتل ؟ فالقس المتسامح الذي

(1) نسبة الى مدينة أسبرطة اليونانية وقد تميزوا بالنظام والعمل الجماعي والالتزام. (م)

يسمع اعتراف مراهق خضع لأهوائه لن يقول له ذلك و أن الكتب المقدسة لا تقوله ايضاً . ففي سفر التكوين ، حكم على خطيئة قابيل بلعنة إلهية مباشرة في حين أن خطيئة (أونان) أدت به إلى موت طبيعي جزاء على امتناعه عن واجبه في الإنجاب[1]. من ناحية أخرى ، وأنت أعلم مني بذلك ، فإن الكنيسة قد ردت مذهب الترودوسيية traducianisme[2] الذي بشّر به "ترتليان Tertullien" فهو يعتقد بأن الروح (ومعها خطيئة آدم الأولى) تنتقل عبر السائل المنوي. لولا أن محاولة القديس أوغسطين المستمرة لتخفيف وطأته بصيغة traducianisme روحية ثم تحولت شيئاً فشيء إلى مذهب

(1) واخذ يهوذا زوجة لابنه البكر اسمها ثامار وكان بكر يهوذا شريرا في عينى الرب فاماته الرب فطلب يهوذامن ابنه الاوسط اونان الزواج بامراة اخيهليقيم نسل اخيه ، فعلم اونان أن النسل لن يكون له فكان إذ دخل على امراة أخيه أنه افسد على الأرض لكيلا يعطي نسلا لاخيه فقبح في عيني الرب ما فعله فاماته أيضًا (م)

(2) traducianism هو مذهب حول منشأ الروح (أو مرادف، "روح")، وقضت بأن هذا المظهر هو غير مادي تنتقل عن طريق الجيل الطبيعي جنبا إلى جنب مع الجسم، والجوانب المادية للبشر. ويستمد روح الفرد من نفوس الآباء والأمهات للفرد. وهذا يعني أن فقط روح آدم قد خلقت مباشرة من الله (م)

"الخلقيـة[1]"créationnisme" الـتي تعتقـد بـأن الله يـنفخ الـروح في الجنين بصورة مباشرة في مرحلة معينة من الحمل.

لقد نشر القديس توما كنوزاً تعبر عن نفاذ بصيرة لشرح كيف ولماذا يجب أن تكون النظرية على ما عليه، مما أدى الى بحث مطول حول كيفية حتمية مرور الجنين بمراحل إنباتية وحسية بحتة قبل التأهل، كنتيجة لهاتين المرحلتين، لاستقبال الروح العاقلة فعليا (لقد انتهيت تـوا مـن اعـادة قـراءة هـذه المسـائل الجميلـة في فصـل "المجموع *Summa*" كما في فصل "*ضد الوثنيين Contra gentes*")؛ لـن اخـوض هنـا نقاشـات طويلـة لمعرفـة في أي مرحلـة مـن الحمـل تحدث هذه "الأنسنة" القطعية (فضلاً عـن ذلـك لا اعـرف اذا كـان علم اللاهوت الحالي لا يزال مستعدا لبحث هذه المسألة استنادا إلى

(1) الخلـق (خلـق السـموات والأرض) **creationism** هـو المعتقـد المشـترك بـين جميع الديانات الإبراهيمية وهو تصور فلسفي قديم بـأن الإنسـان والحياة والأرض والكون أيضاً نشـأ نتيجة تـدخل وإبداع ربـاني إلـهي مـن قبـل الخـالق. هـذا التـدخل الإلهي يمكن ان يكون خلقا مباشرا من عدم (ex nihilo) أو انبثاق للنظام والترتيب. يعتبر معظم المؤمنون في الديانات السماوية أن نظرية الخلق لا تتعـارض مـع الحقـائق العلمية.(م)

المصطلحات الارسطية للقوة والفعل). ما أريد قوله هو أنه حتى في داخل اللاهوت المسيحي قد تم عرض مسألة العتبةseuil(جدا دقيقة) بعيداً عن كونها مجرد فرضية، إذ يجب الاعتراف بهذه البذرة الصغيرة – الركام المعتم من الحياة الذي ما زال متشبثاً بجسد الأُم، الرغبة العجيبة للنور، التي لا تختلف عن رغبة تلك البذرة القابعة في أعمال التربة في أن تصبح زهرة - على انها حيوان عاقل حتى وإن كان فانيا. وتتمثل هذه المسألة لغير المؤمن كذلك، إذ انه على استعداد للاعتراف بأن هذه الفرضية الأولية تؤدي دائما إلى ولادة إنسان. لست بعالم أحياء (ولا ايضاً عالم لاهوت) ولست بصدد تقديم أي تأكيد عقلاني حول هذه العتبة، أو حتى القول بأن هناك عتبة حقا. فلا يمكن لأيّ نظرية رياضية لحساب الكوارث امتلاك القدرة على اخبارنا بأن هناك نقطة محدده للانقلاب أو للانفجار المفاجئ. بلا شك نحن محكومين فقط بمعرفة وجود هذا التطور، وأن نتاجه هو معجزة الطفل حديث الولادة، وأن مسألة اللحظة التي يحق لنا التدخل في هذا التطور أو تلك التي لم يعد مباحاً

التدخل بها، لا يمكن أن تكون واضحة ولا قابلة للنقاش. وإذن، فلا يمكن اتخاذ القرار، أو أن اتخاذه مخاطرة تتحملها الأم فقط سواء أمام الله أو امام محكمة ضميرها او محكمة الإنسانية.

وأكرر، ليس في نيتي طلب حكم منكم. بل أود منك التعليق على هذه المغامرة الشيقة التي استمرت لقرون عدة من علم اللاهوت حول قضية تعتبر الأساس حتى في إقرارنا المتبادل على اننا مجتمع بشري. أين يقف الجدل اللاهوتي من هذا الموضوع، في هذا الوقت الذي لم يعد علم اللاهوت يعتمد في قياسه على الفيزياء الأرسطية وانما على اليقين (او اللايقين) للعلوم التجريبية الحديثة ؟ تعرف جيدا أن هذه القضايا لا تتضمن رؤية حول الإجهاض فقط وانما سلسلة درامية من القضايا الحديثة، حول عبقرية علم الوراثة على سبيل المثال، وتعرف ايضاً أن النشور الحيوي يخصنا جميعاً، مؤمنين أو غير مؤمنين. ما هو موقف عالم اللاهوت اليوم في مواجهة مذهب الخلقية القديم ؟

تعريف ما هي الحياة، ومتى تبدأ، هي السؤال أين نذهب بحياتنا. صدقني أن عرض هذه التساؤلات يشكل بالنسبة لي أيضاً حملاً أخلاقياً وفكرياً وعاطفياً ثقيلاً.

Umberto Eco ***juin 1995***

La vie humaine participe de[1] la vie de Dieu

الحياة الإنسانية مرهونة بإطالة العمر

(1) Cet ouvrage participle du roman policier et de la science-fiction.

العزيز أمبرتوإيكو،

تذّكر تحديداً في بداية رسالتك، الغاية من هذه المراسلات. إذ إنها تحدد أرضية مشتركة للنقاش بين العلمانيين والكاثوليك، من خلال عرض النقاط التي لا تحتوي على إيّ توافق بين الآراء. تلك التي تولد سوء فهم عميق مؤدية الى صراعات سياسية واجتماعية خاصة. اتفق معك شريطة امتلاكنا الشجاعة للكشف بدء عن حالات اللبس التي تشكل أصل ما يعترينا من سوء فهم. عندها سيكون من السهل التعرض للاختلافات الحقيقية وهو ما يجعلنا "مستعدين للتضحية"، مع كثير من الاهتمام والإخلاص اللذين قبلنا بهما المشاركة في الموضوع المعروض وقبول تحدياته.

لهذا السبب أقدر كثيراً حكمك الأول حول موضوع الحياة : إذ إن ولادة طفل هي " شيءٌ مثير للإعجاب ، معجزة طبيعية علينا قبولها".

انطلاقاً من هذه البديهية علينا الاعتراف مع ذلك بأن موضوع الحياة (سأتناول لاحقا اختيارك كتابة كلمة الحياة بالحرف الكبير) هو بالتأكيد واحدة من النقاط الحرجة في الصراع وتحديداً فيما يخص التشريعات المتعلقة بالإجهاض. إلا أن هذه النقطة تشكل مصدراً رئيساً في سوء التفاهم . فالحديث عن الحياة الإنسانية والدفاع عنها من وجهة نظر أخلاقية هو في الحقيقة شيء ، أما التساؤل عن الوقت المناسب من الحمل الذي يمكن للقانون فيه حماية هذه القيم الأخلاقية في وضع مدني وسياسي معين ، فهو شيءٌ آخر. ومصدر آخر لسوء التفاهم يكمن فيما تدعوه " راية الحياة" التي " عندما ترفرف فهي لا تعدم استثارة جميع العقول". أعتقد انك ستوافقني الرأي بأن كل الرايات هي في حقيقتها مفيدة للإشارة إلى المثل العليا الكبيرة ذات الطابع العام ، لكنها لا تقدم

خدمة كبيرة في حل القضايا المعقدة التي تؤدي إلى صراعات قيمية في أُطر تلك المثل العليا ذاتها. نحتاج هنا إلى تأمل دقيق، وهادئ، وحساس، وصبور. اذكر عندما كنت طفلاً، وأثناء نزهتي في الجبال الحدودية لـ "فالي دا اوستا[1] Val d'Aoste" كانت مفاجأتي عندما سألت نفسي عن النقطة المحددة التي تفصل الشعبين. لم أعرف كيف يمكن تحديدها إنسانيا. ومع ذلك فإن الشعوب موجودة، على الرغم من اختلاف بعضها عن بعض.

المصدر الثالث من سوء الفهم هو، في رأيي، الخلط بين الاستعمال الواسع لمصطلح " حياة"، "التماثلي" (و يطلق عليه طلبة اللاهوت، وأنا أُورده بكل ثقة بما انك اكدت لي قراءتك لصفحات من فصل "المجموع *Summa*" ومن فصل" *ضد الوثنيين Contra gentes*)، والاستعمال المقيد والحقيقي لمصطلح "الحياة الإنسانية". فالمصطلح الأول يشير إلى كل كائن حي في

(1) أحد الأقاليم العشرين المكونة للأراضي الإيطالية، وهو يتمتع بنوع من الحكم الذاتي، يقع في أقصى شمال غرب البلاد (م)

السماء وعلى ظهر الأرض أو في باطنها، ناهيك عن "الأرض الأم" في حد ذاتها، بهزاتها، بخصوبتها، وبأنفاسها. وتذكر ترنيمة ليلة الخميس للقديس امبروز المستوحاة من الاصحاح الأول لسفر التكوين : " في اليوم الرابع لقد سحبت كل كائن حي، يا ألهي، من المياه الأولية : فجعلت الأسماك تتهادى في البحور وجعلت الطيور تطير في الهواء." إلا أن هذا لا يخص المفهوم الواسع للـ" حياة"، على الرغم من احتمال تضمنه لفروقات ثقافية، وربما دينية. فالقضية الأخلاقية الساخنة تتعلق ب" الحياة الإنسانية".

ولكن مرة أخرى، لابد من التوضيح. أحيانا نفكر ونكتب أن الحياة الإنسانية تمثل ،القيمة العليا بالنسبة للكاثوليك. وهذه الطريقة للتعبير عن الأشياء غير دقيقة إلى حدّما. فهي لا تتوافق مع الانجيل، الذي يقول : "لا تخافوا الذين يقتلون الجسد ولا يقدروا أن يقتلوا النفس" (متى 10، 28). فالقيمة الأسمى بالنسبة للانجيل، ليست الحياة الجسدية ولا حتى النفسية (التي يشير اليهما الانجيل بالمصطلحات اليونانية النفس *psyché* والجسد *bios*)، بل

هـي الحيـاة الإلهيـة المنتقلـة إلى الإنسـان (تلـك الـتي يشـار اليهـا بالمصطلح زوي *zoê*).وقد ميز العهد الجديد بين هـذه المصطلحات الثلاث بشكل واضح وعدّ المصطلحين الأولين تابعين للثالـث." من احب نفسه(*psyché*) خسرها ، ومن أنكر نفسه(*psyché*) في هذا العالم حفظها للحياة الأبدية (*zoé*)" (يوحنا 25 ، 12).و إننا بتأكيدنا على كلمة "الحياة" نكون قد قصدنا قبل كل شيء هذه الحياة السامية والمتجسدة حياة وكينونة التي هي الله بذاته. هذه الحياة التي خص بها يسوع ذاته (" أنا هو الطريق والحق والحياة".(يوحنا 6 ، 14) التي يشارك فيها جميع الرجال والنساء. أن القيمة السامية في هذا العالم هو الإنسان الذي يعيش من خلال الحياة الإلهية.

وبهذا يمكننا فهم قيمة الحياة الإنسانية الجسدية في المفهوم المسيحي على انها : حياة شخص ما مدعو لمشاركة حياة الرّب بذاته. فالنسبة للمسيحي ، لا يعدّ احترام الحياة الإنسانية منذ أول تجلياتها شعوراً متعلقاً بالجنس البشري (لقد تحدثت عن "الحالة العاطفية" ، وعن " القناعة الفكرية")، لكن لم تتحدث عن التلاقي

بمسؤولية محددة : المسؤولية عن هذا الكائن البشري المادي الحي والذي لا تعزى كرامته، فقط، إلى تقييم متسامح من جانبي أو إلى دافع إنساني لا يقاوم، وانما إلى دعوة ربانية. فهو شيء ما لا يكمن فقط في " ماهيتي" أو ما "يعود لي" أو ما هو "في داخلي" وانما ما هو أمامي.

ولكن متى أكون أمام كائن حي ملموس يمكن أن اسميه بشراً، يقع عليه الخير الإلهي؟ فأنت تذكر تحديداً أن "كل العالم يعدّ حديث الولادة الذي مازال مرتبطا بحبله السري إنسانا". لكن "الى أي مدى يمكننا العودة الى الوراء" ؟ أين هي "العتبة" ؟ لقد ذكرت تحديداً تأملات القديس توما حول مختلف مراحل تطور الكائن الحي. أنا لست فيلسوفا ولا عالم أحياء ولا أنوي الخوض في مثل هذه المسائل. لكن كلنا يعرف أن الجميع اليوم يعرف آلية التطور البشري ووضوح العوامل الوراثية انطلاقاً من نقطة يمكن أن تكون محددة ، على الأقل من الناحية النظرية . فوفقاً لهذا المفهوم حقيقة يولد كائن جديد. جديد بمعنى مختلفاً عن العنصرين اللذين

باتحداهما يتشكل. يشرع هذا الكائن باتباع عملية تطور تؤدي به إلى أن يصبح هذا "الطفل، شيئاً مثيراً للإعجاب، معجزة طبيعية علينا قبولها".أن هذا الكائن هو المقصود منذ البداية، إذ إن هناك استمرارية في الهوية.

وبعيداً عن المناقشات العلمية والفلسفية، يبقى الوضع المفتوح على مصير جد عظيم ـ أن تتم دعوته باسمه من قبل الله بذاته ــ يستحق منذ البداية أجل التقدير والاحترام. لا أرغب هنا رفع شعار " الحق بالحياة"، الذي يمكن أن يبقى بارداً ولا شخصياً. بل المقصود هنا المسؤولية الملموسة تجاه هذا الكائن الذي يحمل معنى الحب الكبير والشخصي، إذن عن المسؤولية تجاه " شخص ما". هذا الشخص بات له وجه بوصفه محبوب ويحمل اسماً، هو الآن موضع مودة واهتمام. وأي انتهاك لشرط المودة والاهتمام هذا لا يمكن أن يكون إلاّ صراعاً، وفي معاناة عميقة، وفي تمزق فظيع. نحن، نقول يتوجب علينا عمل كل ما هو ممكن للحيلولة دون وقوع هذا الصراع، ولمنع هذا التمزق. فمثل هذه الجروح من الصعب أن تندمل أو من المستحيل من دون شك. ومن تحمل آثارها

هي المرأة خاصة، وهي التي قد تم تكليفها بالمقام الأول وبكل ثقة بما هو أرق وأنبل ما في العالم.

إذا كانت هذه هي المشكلة الأخلاقية والإنسانية، أما المشكلة المدنية الناتجة عنها ستكون فعلى النحو الآتي : ما هي الكيفية التي يمكن من خلالها مساعدة الأشخاص والمجتمع برمته، لتجنب هذه التمزقات قدر الإمكان ؟ ما هي الكيفية التي بها يمكن دعم المخلوق الذي اقحم في صراع الواجبات، إن كان هذا الصراع واقعياً أو ظاهرياً، كي لا يتم التخلص منه ؟

لقد قلت وانت تختتم : " إنّ تعريف ما هي الحياة، ومتى تبدأ، هي السؤال أين نذهب بحياتنا." اتفق معك، على الاقل فيما يخص " ما هي" وقد قمت بإجابتك. أما بالنسبة لـ " أين"، فيمكن الحفاظ على الغموض، لكنه يخضع لقيمة " ما هي". فالشيء الذي يتمتع بقيمة عالية يستحق احتراماً عالياً. هذه هي نقطة البداية دراسة أيّ حالات محددة؛ إذ من الصعب دائماً الاقتراب، لكن، وانطلاقا منها، لا يمكن عرضها باستخفاف.

بقي سؤال واحد: لقد أكدتُ بقوة على أن ما يأخذه العهد الجديد في الحسبان ليس الحياة المادية، وإنما الحياة التي يهبها الله. كيف يمكن أن يكون هناك حوار حول هذه النقطة بمثل هذه الدقة من مذهب "منزَل" ؟ وقد وجدت إجابة أولى في العديد من **توكيداتك** المعبرة عن الهم والقلق الذي يشعر به أيٌّ شخص يجد نفسه في مواجهة مصير حياة بشرية، في أي لحظة من وجوده. هناك استعارة رائعة تعبر بشكل علماني عما يكنه الكاثوليك والعلمانيين في الأعماق : تلك هي استعارة الوجه. إذ تحدث عنها " ليفيناس[1] Levinas" بوصفٍ صادقٍ على انها حقيقة لا يمكن

---

(1) **إيمانويل ليفينا)** ولد 12 يناير، 1906 - توفي 25 ديسمبر، 1995).
فيلسوف فرنسي من أصل يهودي صاحب " إيتيقا الغيريّة " وكاتب العديد من التفاسير حول التوراة. ساهم في التّعريف بفينومينولوجيا هوسّرل في فرنسا. درّس الفلسفة بجامعة بواتياي سنة 1964 ثمّ انتقل بعد ذلك إلى جامعة نانتار "1967 " وأخيرا إلى السّوربون عام 1973.اتّهم ليفيناس الفكر الغربي برمّته على أنّه أوّلا فكر كلياني يقوم بإقصاء وبتغييب فكرة اللاّتناهي، وثانيا على أنّه فكر يهتمّ بمفهوم الحقّ ويقصي جانبا مفهوم الخير. لذلك اقترح ليفيناس أن يؤسّس، لا فلسفة تواصل المشروع الميتافيزيقي الغربي القديم في سعيه نحو الحقيقة، بل إيتيقا تؤسّس لخير مشدود إلى الحقّ. وقد عرض ليفيناس هذه الأطروحة في مؤلّفه " الكلّية --

مجادلتها. لكـني أود أن أذكـر مقولـة لــ" إيتـالو مانســيني Italo Mancini"[1] في أحد كتبه الأخيرة والذي يعد وصيته الأخيرة، لـو أن الوجـوه تعـود: "عالمنـا لكـي يكـون ملائمـاً للعـيش، وللحـب، ولتطهيرنا لم يتم خلقة من خلال نظريـة محايـدة مـن المخلـوق، ولم يـتم خلقـه مـن خـلال احـداثٍ مـن التـاريخ أو مـن خـلال ظـواهر طبيعية، وانما من خلال حقيقة وجـود مراكـز الغيريـة الغريبـة، هـي تلك الوجـوه، الوجـوه الجـديرة بـالنظر إليهـا، والجـديرة بـالاحترام وبالرعاية."

Carlo Maria MARTINI

juin 1995

واللاَتنـاهي . في هـذا الكتـاب قـام بتوضـيح أنَّ حضـور وجـه الآخـر لـيس مـدعاة ضرورة للصّراع وللعنف كما ذهبت إلى ذلك وجوديّة سـارتر، بقـدر مـا هـي علاقـة قبـول. وفي هـذا القبـول بـالآخر دون احتوائـه في منظومتنـا المعرفيّـة تكمـن إنسـانية الإنسان.(م)

(1) كاهن وفيلسوف ايطالي (م)

Les hommes et les femmes selon l'Église

الرجال والنساء وفق الكنيسة

عزيزي مارتيني ،

ها نحن نستأنف حوارنا من جديد ، واعترف إني أشعر بشيء من الأسف لان هيئة التحرير قد قررت أن تعهد لي في كل مرة المهمة الثقيلة يبدأ الحوار : ينتابني شعور بأني وقح. فربما اسلمت هذه الهيئة إلى المزاعم التي تدعي بأن الفلاسفة هم أفضل من يختص بعرض اسئلة لا يعرفون لها جواباً ، بينما يملك راعي الأرواح دائماً الإجابة الصحيحة. ولحسن الحظ ، فقد أظهرت في رسائلك السابقة الى أي مدى يمكن لآراء راعي الأرواح أن تكون ذات اشكالية ومؤلمة ومخيبة لآمال اولئك الذين ينتظرون منك ممارسة دوراً نبوياً.

فقبل أن أوجه لك سؤالاً لا أملك الإجابة عنه، أود التصريح ببعض البيانات الافتتاحية. عندما تقرر أي سلطة بغض النظر عن ديانتها قراراً حول القضايا المتعلقة بمبادئ الأخلاق الطبيعية، يجب على العلمانيين الاعتراف بهذا القانون : إذ إن بإمكانهم المصادقة على هذا الموقف أو عدم المصادقة عليه، لكنهم لا يملكون أي سببٍ للاعتراض على حق هذه السلطة بالتصريح حتى وإن كان نقداً موجهاً إلى نمط حياة الغير المؤمن. إذ أن العلمانيين جُبلوا على الاعتراض في حالة واحدة فقط : وهي في حال أن هذه الديانة تسعى لفرض سلوكيات على غير المؤمنين (أو على المؤمنين من ديانات أخرى) يرفضها أتباع الدولة أو دياناتها، أو، على العكس يمتنعون عن سلوكيات أخرى تقرها الحكومة وديانتها.

لا أعتقد إن هذا الحق المعاكس موجود. فليس للعلمانيين الحق توجيه الانتقاد لنمط حياة مؤمن ما ـ الا، وكما هي الحال دائماً، إذا كان يسير عكس قوانين الدولة (على سبيل المثال، رفض اخضاع طفله المريض إلى عملية نقل دم) أو في حالة تعرضه بالضرر

إلى حقوق أولئك الذين يعتنقون ديانة أخرى. فوجهة النظر الدينية تسعى دائماً إلى اقتراح نمط حياة يُحتذى به، بينما وجهة النظر العلمانية ترى ان المثال المُحتذى به هو كل نمط حياة ناتج عن اختيار حر شريطة أن لا يقوم هذا الاختيار بمصادرة اختيار الآخر.

من جهة المبدأ، أعتقد أن لا أحد لديه الحق في الحكم على الالتزامات التي تفرضها مختلف الطوائف على اتباعها. فليس لدي أي سبب للاعتراض على حقيقة أن الإسلام يحرم شرب المشروبات الكحولية، فإذا كنت لا أوافق على هذا التحريم، فالأفضل أن أترك الإسلام. فأنا لا أفهم لماذا يستنكر العلمانيون قرار الكنيسة بتحريم الطلاق : إذا أردت أن تكون كاثوليكيا فلا تطلق، وإذا اردت الطلاق فاعتنق البروتستانتية، ولا تعارض إلا عندما تريد الكنسية منعك من الطلاق وأنت غير كاثوليكي. و إني منزعج من مثلي الجنس الذين يريدون اعترافا من الكنيسة بهم، أو من الكهنة الذين يرغبون بالزواج. فعندما أدخل مسجداً، اخلع

حذائي ولا اتذمر، في بيت المقدس أيام السبت إذ يتوقف المصعد بشكل آلي في كل طابق في بعض البنايات. فإذا أردت عدم خلع الحذاء أو التحكم في المصعد وايقافه في الطابق الذي أريد، فلأذهب إلى مكان آخر. ففي بعض حفلات الاستقبال لا بد من ارتداء بدلة السموكنج، وهنا أنا من يقرر إن كنت أوافق على الرضوخ لتقليد يستفزني، إن كان لدي سبب وجيه لحضور هذا الحدث، أو أبقى في البيت لتأكيد اعتزازي بحريتي.

فلو قام الكهنة الآن بإنشاء حركة للتأكيد على قرار لا يصدر عن البابا، كأن يعتمد على أمور لا تمس العقيدة مثل الرهبنة، وإنما عن طائفة من المؤمنين الملتفين حول اسقفهم، وأن هذه الحركة بحاجة إلى تأييد عددٍ كبير من المؤمنين الملتزمين، في هذه الحالة سأرفض من جهتي التوقيع على وثيقة تؤيد مطالبهم. ليس لأني غير مقدر لمشاكلهم، ولكني لا أنتمي إلى مجموعتهم وليس لدي الحق لأحشر أنفي في قضايا ذات طابع كهنوتي بحت.

ومع ذلك، فلا علاقة لهذا بإرادة العلماني المهتم في بحث الأسباب التي تدفع الكنسية إلى رفض أو قبول بعض الأشياء. فإذا دعوت يهودياً أرثودكسيا للعشاء (هناك الكثير منهم من بين زملائي الأمريكان من المهتمين بفلسفة اللغة) فأحرض (بداعي الفضول) على سؤاله مسبقاً عن الأطباق التي يمكن تناولها، الا أن هذا لا يمنعني من سؤاله بعد ذلك عن بعض التوضيحات الخاصة بالمطبخ اليهودي، لفهم الأسباب التي تدفعني إلى تجنب بعض الأطعمة التي كانت تبدو لي، كنظرة أولى، متاحة حتى للحاخام. وهكذا يبدو لي عملا شرعياً تمكن العلماني من سؤال البابا عن أسباب وقوف الكنيسة ضد تحديد النسل، وضد الطلاق، وضد الإجهاض، وضد المثلية الجنسية. وقد اجابني البابا ويجب الاعتراف بأن جوابه كان متماسكا، منذ اللحظة التي قرر فيها منحي تفسيرا محددا للوصية الاخلاقية (*crescite et multiplicamini* أثمرو او اكثروا (هذه الترجمة لهاتين الكلمتين من اللغة اللاتينية لكني لم اعثر على ما يدل عليها). ويمكنني كتابة

مقالة تقدم تفسيراً بديلاً ، لكن ما دامت الكنسية لا تؤيد تفسيري ، فإنها هي التي تمسك بزمام الأمور.

وأصل إلى سؤالي. لم أجد حتى الآن في المذهب أسباباً مقنعة لاستبعاد المرأة من الكهنوت. فإذا أرادت الكنيسة استبعاداً لمرأة من الكهنوت ، أقر لها ذلك – وأكرر ما اقول - وأحترم استقلاليتها بشأن مسائل على هذه الدرجة العالية من الحساسية. ولو كنت امرأة وأردت أن أصبح كاهنة بأي ثمن ، لكنت تحولت إلى عبادة إيزيس دون اللجوء إلى إرغام البابا. ولكني كمثقف ، وكقارئ (منذ زمن بعيد) للكتاب المقدس ، تراودني بعض الشكوك التي أحب رؤيتها تنجلي.

لم أجد أي سبب ديني. فعندما أقرأ سفر الخروج من الآية 29 الى الآية 30 ، وأيضا سفر اللاويين[1] أعرف أن الكهانة قد منحت

(1) (سفر اللاويين) وهو أحد الاسفار المقدسة في التناخ الكتاب المقدس لدى الديانة اليهودية والعهد القديم لدى المسيحية ، ولا خلاف على قدسيته لدى جميع الطوائف المسيحية واليهودية ، ويعتبر سفر اللاويين أحد الاسفار الخمسة المنسوبة --

إلى هارون وأولاده، ولم تعط لنسائهم (والى جانب ذلك، وإذا تتبعنا الحالة، استناداً إلى بولص في العبرانيين، فهذا النظام لم يضعه هارون وانما المجمع الخلقدوني، والذي يتمتع فضلا عن ذلك بأفضلية تاريخية - دينية، راجع سفر التكوين 14 - ولم تتغير الامور).

ولكن إذا أردت أن أقرأ الكتاب المقدس بوصفي بروتستانتي أصولي وجب عليَ التأكيد على أن الكهنة' استناداً إلى سفر اللاويين' " لا يحلقون رؤوسهم على شكل دائرة مثل بقية الرهبان، ولا يحددون لحيتهم" وبعد ذلك يهزهم حزقيا في 20، 44 الذي يرى عكس ذلك، فاستناداً إليه يجب على الكهنة تقصير الشعر؛ فضلاً عن ذلك ففي كلا النصين يمنعون من الاقتراب من الجثث. وكأصولي جيد؛ يجب علي السؤال عما إذا كان هذا

لموسى ويشكل جزءا من التواره، أصل التسمية تعود الى مفردة لاوي وهو أحد أسباط بني اسرائيل الاثنى عشر وقد غهد الى هذا السبط شؤون الخدمة الكهنوتية في المجتمع اليهودي بشكل حصري أما في الرجمة اليسوعية للكتاب المقدس يظهر السفر تحت اسم سفر الاحبار. (المترجمة عن ويكيبيديا)

الكاهن (وحتى الكاثوليكي) متمسكا بسفر اللاويين إذ يسمح للكهنة بالزواج أو كان يتبع سفر حزقيال الذي لا يسمح بالزواج إلا بعذراء أو بأرملة احد الكهنة.

ولكن حتى المؤمن يتقبل فكرة أن مؤلف الكتاب المقدس قد كتبه بطريقة تثبت تكيفه مع سير الأحداث، فالأحداث والمواضيع تتلائم مع مدى استيعاب واستعمال الحضارة التي يخاطبها فلو أن يسوع قال : " توقفي ايتها الأرض عن الدوران!" أو " فليتوقف قانون نيوتن للجاذبية الكونية!"، فلأعدوه مجنوناً. لقد أكد يسوع على ضرورة دفع الجزية إلى القيصر لأن هذا ما كان يقتضيه التوازن السياسي في منطقة البحر المتوسط، ولا يعني أن يقوم المواطن الأوروبي اليوم بدفع ضرائب إلى آخر سلالة هابسبورغ وكلما قابل كاهناً أكد له أنه سيذهب إلى النار مباشرة إذا حول الجزية المستحقة إلى وزارة المالية في بلده.

وبالتالي، فمن الواضح حتى للمؤمن، أنه إذا قرر الله تجسيد الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس في ذلك الوقت وفي فلسطين،

فهو ملزم بجعل المتجسد في هيئة رجل، فلو جاء على هيئة مختلفة لما كان لكلامه أية قيمة. وأعتقد أنك لن تنكر لوأن القدر الإلهي المحتوم قضى بأن المسيح يتجسد في اليابان لكان حبذ الأرز والساكي ولبقي سرّ القربان المقدس على ما هو عليه. ولو أن المسيح تجسد بعد زمانه بعدة قرون، أي عندما كان للمتنبيات المونتانيات[1] مثل بريسيلا وماكسميليا فضلٌ كبير، فلربما تجسد على هيئة أنثى، ويمكن لذلك الحدوث ايضاً في حضارة رومانية تكن الكثير من الاحترام إلى عذارى فستال[2]. ولإنكار ذلك، يجب التأكيد على أن المرأة كائن نجس. فلو تجرأ أحد على قول ذلك في بعض الحضارات أو في بعض الحقب، فلن يكون ذلك ابدا رأي البابا الحالي.

(1)المونتانية حركة مسيحية مبكرة (منتصف القرن الثانى) سميت نسبه لمؤسسها مونتانوس .ازدهرت أساسا في فريجيا وحولها، ثم انتشرت بسرعة في مناطق **الإمبراطورية الرومانية** عندما أصبحت المسيحية مسموحة

(2) **عذارى فستال) باللاتينية** (sacerdosVestalis :، هن كاهنات **الإلهة فستا العذراء** المكلفات بالحفاظ على بقاء النار المقدسة مشتعلة بحسب الأساطير الرومانية.

يمكن للمرء اللجوء إلى أسباب رمزية: فبما أن الكاهن هو صورة المسيح الذي هو كاهن بامتياز، وبما أن المسيح كان رجلاً ، فمن الضروري للحفاظ على رسوخ هذا الرمز وهو أن يبقى الكهنوت من اختصاص الرجال. ولكن خطة زيّاح القربان المقدس Salut يجب أن تخضع لقوانين دراسات الشخصيات والعهود أو لقوانين شرح الرموز ؟

وبما أن مما لاشك فيه أن المسيح ضحى بنفسه من أجل الرجال والنساء، وأنه، خلافاً لعادات وتقاليد زمانه، كان قد أعطى امتيازات عالية جداً للإناث من تلاميذه، وبما أن المخلوق الوحيد من الجنس البشري المنزه عن الخطيئة الاصلية هي امرأة، وبما أنه ظهر على الناس وليس على الرجال في أول ظهوره بعد البعث، اليس في ذلك دلالة واضحة على أن المسيح أراد ، خلافا لقوانين زمانه، وفي الاطار الذي يمكنه التجاوز عليه بطريقة عقلانية، اعطاء توجيهات واضحة حول المساواة بين الجنسين، اذا لم يكن ذلك أمام القانون والأعراف التاريخية، فعلى الأقل على مستوى

الخلاص ؟ وأؤكد لك إني لا أجرؤ على المغامرة في خوض المسألة الشائكة لمعرفة إذا كان مصطلح "الوهيم[1] Elohim" الذي يظهر في بداية سفر التكوين يدل على المفرد أو الجمع ، وإذا كان يقصد به نحوياً أن الله له جنس (وأنا ببساطة اعد أن تأكيد يوحنا بولس الأول على أن الله يمكن أن يكون أما ، صيغة بلاغية بحتة ، من دون أن يترتب عليها افكار لاهوتية).

فالحجة الرمزية لا ترضيني. كما لايترضيني الحجة القديمة التي تقول بأن المرأة في بعض مراحل حياتها ، تصل إلى درجة النجاسة (حتى لو تم دعم هذه الحجة في الماضي ، وكأن دم الحيض أو النفاس للمرأة اكثر نجاسة من كاهن مصاب بالإيدز).

عندما أشعر بالضياع في المسائل الفقهية ، أهرع إلى الشخص الوحيد الذي أثق به ، ومن أعنيه هو توما الأكويني. إلا أن توما ،

(1) **إلوهيم** (אֱלוֹהַ) كلمة عبرية لوصف **الإله** أو **الآلهة**، وهى متعلقة بكلمة **إل (إله)** **السامية** مع أنها تعتبر مشتقة من كلمة **الوَه** مع صيغة الجمع. إلوهيم ثالث كلمة في النص العبري **لسفر التكوين** وتظهر كثيرا في التناخ مع أن معناها الدقيق غير متفق عليه غالبا.

الذي كان رجلاً على درجة فائقة من الحس المرهف قبل أن يصبح طبيباً سماوياً، حتم عليه وفي مواقف عديدة إلى مواجهة مسألة معرفة ما إذا كان الكهنوت هو امتيازاً ذكورياً حصرياً. ولكي نبقى من ضمن اطار" ملخص اللاهوت" ، إذ يتساءل في الجزء الثاني ، 2، 11 ويجد نفسه أمام التوكيد البوليني (حتى القديسيين ليسوا معصومين) وما يترتب عليه من قرار، في المجمع الكنسي، يلزم النساء بالصمت وبعدم التعليم. الا أن توما وجد في سفر الأمثال " كنت الوحيد على مرأى من والدتي فعلمتني" . كيف يخرج من ذلك ؟ بقبول علوم الإنسان (الانثروبولوجي) الخاصة بزمانه (هل بإمكانه التصرف بشكل آخر؟) : أي أن الجنس الانثوي يجب أن يكون خاضعاً للجنس الذكوري، وأن النساء لسن معصومات في الحكمة.

في الجزء الثالث، 31، 4، يتساءل توما عما إذا كان من الممكن عدّ مادة جسد المسيح جسداً أنثوياً (أنت تعرف بانتشار نظريات العارفين القائلة بأن المسيح كان قد مر من خلال جسد مريم كما

ينساب الماء في الانبوب، وكأنه مر من خلال مركبة طارئة، دون أن تمسه، دون أن يتدنس بأي نجاسات مرتبطة بعلمية الولادة). ويذكر توما بأن المسيح يجب أن يكون كائنا بشرياً قد أخذ لحمه من المرأة، لان القديس أوغسطين يشهد بأن " تحرر الإنسان يجب أن يكون لدى كلا الجنسين". ومع ذلك لم يستطع التحرر من علوم الإنسان " الانثروبولوجي" في زمانه وأستمر بافتراض أن المسيح يجب أن يكون رجلا لأن الجنس الذكوري هو الأنبل.

إلا أن توما تمكن من التغلب على الانثروبولوجيا الحتمية لزمانه. فهو لم يستطع انكار أن الذكور أعلى مرتبة وأكثر قدرة على امتلاك الحكمة من النساء، ولكنه سعى في مواطن عديدة للبحث عن الأسباب، وفي هذه الحالة، فقد تم منح النساء حق النبوة، ومنح الراهبات هداية الأرواح والتعليم كذلك، وقد تمكن من استخلاص ذلك بفضل جدل انيق ومعقول. ومع ذلك، يبدو ليس مقتنعاً بما فيه الكفاية، فمن خلال دهائه المعتاد يجيب بشكل غير مباشر، متظاهرا بنسيان اجابته عن السؤال مسبقاً، يقول في

الجزء الأول ، 99، 2: لو كان الجنس الذكوري هو الأفضل، فلماذا سمح الله بخلق النساء في الحالة البدائية قبل الخطيئة الأولى ؟ ، ويجيب هو ذلك، لأنه كان من المنصف ظهور النساء والرجال في الحالة البدائية. ليس لضمان استمرار النوع، بما أن البشر كانوا مخلدين، فلم يكن مجدياً ادخال الازدواجية الجنسية كشرط لبقاء الجنس البشري. ولذلك (راجع *التكملة* 139 , النص ليس بيديه ولكنه ينهل من هذا الرأي) " إن النفوس ليس لها جنس" ؛ في الحقيقة أن الجنس بالنسبة لتوما كان حادثاً عارضاً في مرحلة متقدمة من التكون. فإذن كان خلق جنسين امراً حتمياً ، لأن (وقد تم ايضاح ذلك في الجزء الثالث، 4 ،*إستجاب responded*) هناك نسخة تركيبية في الاجيال البشرية : فالإنسان الأول قد خُلق بلا ذكر ولا أنثى، وحواء خُلقت من ذكر بلا أنثى، والمسيح ولد من أنثى بلا ذكر، إلا أن كل باقي البشر ولدوا من ذكر وأنثى. عدا هذه الحالات الاستثنائية الثلاث، هذه هي القاعدة وهذه هي الخطة الالهية.

يتساءل توما الكويني في الجزء الثالث، 67، 4، عمّا إذا كان يمكن للمرأة أن تقوم بالتعميد، وقد أدرج بسهولة الاعتراضات التي تقدمها له التقاليد : فالذي يقوم بالتعميد هو المسيح، ولكن بما أن " ليس هناك ذكر أو انثى في المسيحية" (وهنا يستوحي توما من بولص في الرسالة إلى أهل كولوسي[1] 11، 3، لكنه قيل بشكل أوضح في الرسالة إلى الغلاطيين[2] 28، 3) فإذا كان للرجل أن يقوم بالتعميد، فالمرأة لها ذلك ايضاً. بعد ذلك (هيمنة الرأي العام !)، يعترف بأن لو كان الرجال حاضرين لا يجوز للمرأة التعميد، بما أن " رئيس المرأة هو الرجل ". ومع ذلك، في الأول، يميز

(1) الرسالة إلى أهل كولوسي هي إحدى رسائل **العهد الجديد** التي تنسب إلى الرسول بولس، وبحسب التقليد فأن **بولس** قام بكتابتها أثناء وجوده في السجن في **روما** عام 62 م بالإضافة لكتابته **لرسالة أفسسوالرسالة إلى الفيلبيين والرسالة إلى فليمون**. بعض الباحثين يعتقدون انها كتبت في ربيع عام 57 م.

(2) الرسالة إلى الغلاطيين **هي** إحدى رسائل **العهد الجديد** التي تنسب إلى الرسول **بولس**، وهي **موجهة** إلى الكنائس الموجودة في إمارة **غلاطية** الرومانية – تقع اليوم في **تركيا**- ، ويدور محتوى هذه الرسالة حول الخلاف الذين كان قائما آنذاك حول ضرورة تقيد المسيحيين ذو الخلفية الوثنية بالشريعة الموسوية أو لا. تعتبر هذه الرسالة من أكثر رسائل بولس الرسول تعمقا في القضايا اللاهوتية وكان لها التأثير الأكبر في الفكر **البروتستانتي**.

بوضوح بين ما هو " غير مسموح به" (بالمصطلح المتداول) للمرأة وما "يمكن" لها القيام به (وفق مصطلح القانون). وفي *المجموعة الثالثة* يحدد بأن، لو كان صحيحا، في النظام الجسدي، فالمرأة هي عنصر سلبي ووحده الرجل هو عنصر إيجابي، إلا أن هذا التمييز الهرمي ليس صالحا للنظام الروحي بما أن الرجل وكذلك المرأة يتصرفان وفق مجيء المسيح.

على أنه، في *التعزيزات* 1 ,39 (ولكن اذكر بأنه لم يكتبه بيده)، يعرض بشكل مباشر مسألة معرفة فيما اذا كانت المرأة تستطيع تلقي الأوامر الكهنوتية، فيجيب باستعمال الحجة الرمزية مرة أخرى : إن السر هو أيضا علامة، ولكي تكون صالحة، "فالشيء" لا يكفي وحده ، يجب ان تكون هناك " علامة الشيء" ؛ وبما أن الجنس الانثوي لا يؤشر أي فضيلة، وبما أن المرأة تعيش في حالة من الخضوع، فلا يمكن تكليف المرأة بالأوامر الكهنوتية.

صحيح أنه في سؤال لا أتذكره يستعمل توما ايضاً حجة الشهوة : وبعبارة أخرى، لو كان الكاهن امرأة فسيشتهيها

المؤمنون (وهم رجال) حال رؤيتها. لكن بما أن المؤمنين يمكن ان يكونوا نساء ايضا، فما هو القول في الفتيات اللائي ربما تتحرك مشاعرهن تجاه " كاهن وسيم" (وأذكرك هنا بصفحات ستندال في روايته صومعة بارما، حول ظاهرة الشبق العاطفي الذي تثيره خطب "فابريس دل دونغو")؟ ويذكر تاريخ جامعة بولونيا حادثة المدعوة "نوفيلا داندريا Novella d'Andréa" وقد تحتل كرسي الأستاذية في القرن الرابع عشر، إذ كانت ملزمة بالتدريس من وراء حجاب لتجنب تشتيت انتباه الطلبة بجمالها. وهنا أسمح لي بالاعتقاد بأن نوفيلا لم تكن تتمتع بدرجة لا تقاوم من الجمال، لكن الأحرى هو حمايتها من بعض تصرفات الطلبة غير المنضبطة . وإذن، فالقصد هو تهذيب الطلبة أو تهذيب المؤمنين، ولكن ليس اقصاء النساء عن نعمة الخطاب.

وباختصار، أشعر بأن القديس توما لا يعرف بذاته كيف يصف بدقة عن الأسباب التي تقول بأن الكهنوت هو حق ذكوري، إلا إذا قبلنا (كما فعل هو ذلك، ولا يمكن أن يقوم

بذلك ، استنادا إلى افكـار زمانـه) بـأن الرجـال كـانوا مفضـلين علـى النساء بالذكاء و الشرف. ولكن على حد علمي هذا لـيس بـالموقف الراهن للكنيسة. أنه يشبه إلى حدّ ما موقـف المجتمـع الصـيني ، وقـد استقبلناه برعب مؤخرا ، الذي يسعى للقضاء على الأطفال الإناث والحفاظ على حياة المواليد الذكور فقط.

وإليك ما يثير حيرتـي : مـا هـي الأسـباب العقائديـة الـتي تمنـع النساء من ممارسة الكهنوت ؟ فإذا كان المقصود مجرد دوافع تاريخيـة ذات افضلية رمزية ، بوصـف أن المؤمنين تعودوا على صورة الرجل الكـاهن ، فمـا مـن سـبب يـدعو لزعزعـة الكنسـية الـتي لـديها كـل الوقت (هذا يعني ، يـا حبـذا لـو عرفـت تاريخـا مـا ، علـى ان يكـون على أية حال قبل قيامة الجسد المقدس).

بالطبع ليس هذا من شأني. فأنـا مجـرد فضـولي. ولكـن النصـف الآخر من السـماء (كمـا يقـول الصـينيون) ربمـا ينتظـر المعرفـة بفـراغ صبر أكبر.

Umberto Eco ***octobre 1995***

L'Église ne satisfait pas des attentes, elle célèbre des mystères

الكنيسة لاتلبي التوقعات، وإنما تحتفل بالأسرار

عزيزي ايكو

مرة أخرى تعود إليك المبادرة في فتح باب هذا الحوار. ومع ذلك، أعتقد أن هذا الأمر تمليه أسباب عملية أكثر منها ايديولوجية. في الواقع، لقد كنت مشغولاً في الخارج في سبتمبر، إذ كان من السهل على إدارة التحرير مخاطبتك أولاً. من ناحتي، أعمل على سؤال أود عرضه عليك لكني سأتحفظ عليه للرسالة القادمة : لا أعرف حقيقة كيف أجيب عليه ولا شيء يهب لنجدتي، ولا حتى تلك "الوظيفة النبوئية" التي أحياناً ينسبها بعضهم خطأ ، وتذكر، للقساوسة. فيمكن أن تعزى الوظيفة النبوئية على الأكثر إلى الأنبياء، ولكن للأسف، فانهم نادرون في ايامنا هذه.

السـؤال الـذي أنـوي توجيـه إليـك يتعلـق بالأسـاس النهـائي للأخلاق بالنسبة للشخص العلماني. أتمنى بشدة أن يكـون للرجـال وللنساء في هذه العالـم أسس أخلاقية واضحة تستند إليهـا أفعـالهم. وأنـا واثـق بـأن العديـد مـنهم هـم مـن اولئـك الـذين يتصـرفون باسـتقامة، علـى الأقـل في ظـروف معينـة، مـن دون الرجـوع إلى أساس ديني للحياة؛ لكني لم أتمكن من فهم ماهية المسوغ النهـائي الذي يعطوه لأعمالهم.

ولكنني الآن أترك هذا السؤال جانباً ؛ الذي احتفظ بتوضيحه في رسالة قادمة، إذا أوكلـت لـي مهمـة البـدء بـالحوار، واتحـول إلى هذه التأملات التي عرضتها في بدء " القضية الشائكة" حول كهنوت المرأة. فقد أعلنت احترامـك كعلمـاني لتصـريحات الطوائـف الدينيـة حول المبـادئ والمشـاكل الخاصـة بالسـلوك الفطـري، لكنـك عـبرت عن عدم قبولك لفرض سلوكيات تحظرها الدولة على غير المؤمنين أو على المؤمنين من الطوائف الأخرى. وأجد هنا متفقا تمامـا معـك. ففي كل مرة يتم فرض مبادئ أو سلوكيات دينية مـن الخـارج علـى

من لا يتفق معها يكون ذلك انتهاكا لحرية الضمير. بل سأذهب أبعد من ذلك وأقول : فإذا كانت هذه القيود موجودة منذ الأزمنة الماضية، في سياقات مختلفة عن سياقات الحاضر ولأسباب لا يمكن لنا من الآن فصاعدا مشاركتها، فقد حان الوقت للمطالبة باعتراف ديني بذلك.

وهذا هو الموقف الشجاع الذي اتخذه يوحنا بولس الثاني في الرسالة حول اليوبيل القادم لعام 2000م، تحت عنوان *ونحن نقترب من الألفية الثالثة*، إذ يقول: "هناك فصل مؤلم آخر لا يمكن لأبناء الكنسية العودة إليه بروح الندم : إذ أقروا، خصوصاً في بعض القرون، أساليب التعصب وحتى العنف في خدمة الحقيقة.

صحيح أن للحكم على التاريخ بشكل صحيح، لا يمكن للمرء تجاهل الأخذ بنظر الاعتبار الظروف الثقافية للمرحلة [...] إلا أن النظر في العوامل المخففة لا يعفي الكنيسة من واجب الندم وبعمق عن ضعف كثير من ابناءها [...] من هذه التصرفات المؤلمة في الماضي يولد للمستقبل الدرس الذي يجب ان يقوم بتشجيع كل

مسيحي على التمسك بقوة بالقاعدة الذهبية التي حددها المجمع الديني (كرامة الانسان1) : "لا يمكن للحقيقة أن تسود إلا بقوة الحقيقة ذاتها، والتي تخترق العقل بكل وداعة وقوة " (رقم 35).

ومع ذلك، سأقدم تحديداً مهماً حول ما أكدته بالنسبة لي فيمل يخص "قانون الدولة". أتفق معك حول المبدأ العام الذي بمقتضاه يجب على المبادئ الدينية التحرك ضمن اطار قوانين الدولة و لا يحق للعلمانيين بدورهم قمع مظاهر حياة المؤمن التي تبقى في إطار هذه القوانين. ولكني اعتقد (وانا متأكد من انك ستوافقني ايضاً) إننا لا يمكننا الحديث عن " قوانين الدولة" وكأنها شيء مطلق وغير قابل للتغيير. فالقوانين تعبر عن الضمير الجمعي لغالبية المواطنين وهذا الضمير الجمعي يخضع للأداء الحر في الحوارات والمقترحات المتبادلة والتي تخفي (أو يمكن أن تخفي) وراءها قناعات اخلاقية عميقة. ولهذا السبب، من المؤكد أن حركات الرأي وللمعتقدات الدينية يمكنها أن تحاول بالتالي التأثير بصورة ديموقراطية على مضمون القوانين التي تعدها لا تتوافق مع مثال

أخلاقي حتى وإن بدا يحمل طابعاً عقائدياً إلا انه يمكن أن يمس جميع المواطنين. هذه هي اللعبة الديموقراطية الحساسة التي تتوقع جدلية بين الآراء والمعتقدات على أمل أن يكبر، بفضل هذا التبادل، هذا الضمير الأخلاقي الجمعي الذي يعدّ أساس التعايش المنتظم.

ومن هذا المنطلق اتلقى بكل ترحيب "سؤالك الشائك" عن الكهنوت الذي قامت الكنيسة الكاثوليكية بحرمان النساء منه : في الواقع انت تعرضه بطريقة صحيحة جداً ، تعرضه كثمرة لرغبة علماني حساس يسعى لفهم الأسباب التي تدعو الكنيسة إلى قبول أو رفض بعض الأمور. حتى وإن لم يكن المقصود هنا هو مسألة أخلاقية وإنما لاهوتية. فالمراد هنا هو معرفة الأسباب التي تدفع الكنيسة الكاثوليكية ومعها كل الكنائس الشرقية ، وهذا يعني تقريباً كل الكنائس التي يعود انتمائها إلى ألفي سنة إلى الاستمرار منذ الأزل بإتباع التطبيق العملي الثقافي الذي يستند عليه استبعاد النساء من الكهنوت.

تقول أنك لم تجد حتى الآن في المذهب أسبابا مقنعة تعلل ذلك، مع تأكيدك على احترام الاستقلال الذاتي للكنيسة فيما يتعلق بمواضيع على هذه الدرجة من الحساسية. بعد ذلك تعرض حيرتك الخاصة بتفسير الكتاب المقدس، وبما يسمى الأسباب اللاهوتية، والأسباب الرمزية أو حتى تلك المتعلقة بعلم الأحياء، قبل شروعك بتحليل وثيق لبعض صفحات القديس توما إذ استسلم على ما يبدو هذا الرجل الذي يتمتع بـ " درجة فائقة من الحس المرهف" هو أيضاً إلى براهين ضعيفة التماسك.

دعونا نستعرض بهدوء جميع هذه النقاط ، حتى وإن استسلمت للدخول في اعتبارات دقيقة جدا : ليس لأني لا أحبها أو لأني أجدها غير ضرورية ولكن خلاف ذلك، فجل ما اخشاه أن لا تجد هذه الرسالة التي هي جزء من مراسلات عامة، من يقرأها. وأتساءل بالفعل عمّا إذا كان أولئك الذين يعرفون الكتاب المقدس قليلا ناهيك عن معرفتهم بالقديس توما التي هي أقل من ذلك قادرين على متابعة ما قلته بهذا الخصوص : لكني سعيد

بأنك قمت بنشر هذه النصوص، لأني أجد راحة فيها وأيضا لأنني آمل أن تتوفر الرغبة لدى بعض القرّاء لتصفحها والاطلاع عليها.

والآن دعونا ننتقل إلى الكتب المقدسة. لقد ذكرت في البداية مبدأ تأويلياً عاماً، يفترض يجب عدم تأويل أن النصوص بالمعنى الحرفي وبطريقة اصولية ولكن يجب الأخذ بنظر الاعتبار الزمان والبيئة التي كُتبت بها. وأتفق تماماً حول هذا المبدأ وحول الطرق المسدودة التي نجد التأويل الاصولي منغلقا فيها. إلا أني أود تسجيل اعتراضي بالقول أنه حتى الأصولي لن يشعر بعدم الارتياح وهو يواجه القاعدة التي ذكرتها حول قصة شعر الكهنة والحاهم.

لقد ذكرت سفر حزقيال 44 ، 20 وسفر اللاويين (أعتقد أنك أشرت إلى لاويين 19 : 27 -28 ؛ 21 : 5 ؛ انظر أيضا تثنية 14 : 1) لتقول لنا إننا إذا فسرنا هذه النصوص بطريقة حرفية فربما يكون هناك تناقض ؛ إذ تكون اللحية كثة عند اللاويين وتكون محددة عند حزقيال. ولكن يبدو لي (ولكثير من مفسري الكتب المقدسة) هناك

تفاصيل في هذه المسألة (المذكورة هنا فقط كمثال) إذ لا يرمي حزقيال إلى مناقضة لاويين : إذ يعتزم الأخير حظر بعض طقوس الحداد ذات الأصول الوثنية (فالنص من 21، 5 يجب أن تترجم على النحو الآتي : "لا يجعلوا قرعة في رؤوسهم ولا يحلقوا عوارض لحاهم ولا يجرحوا جراحة في أجسادهم." وربما يشير حزقيال إلى هذا المعيار نفسه). ولا أقول هذا للدفاع عن الأصوليين ولا لصالح هذه التسريحة أو تلك، ولكن للإشارة إلى أنه ليس من السهل دائما معرفة ما يشير إليه الكتاب المقدس حول بعض النقاط المحددة أو اتخاذ قرار، فيما يخص موضوع معين، متماشياً مع عادات الحقبة الزمنية أو للإشارة إلى حالة دائمة لدى شعب الله المختار.

وفي ما يتعلق بموضوعنا، فمفسرو الكتب المقدسة الذين بحثوا في الانجيل عن براهين إيجابية لكهنوت النساء، واجهوا صعوبات دائمة.

ماذايمكنني القول عن البراهين التي يمكن أن ندعوها "لاهوتية" والتي مثلت لها بالرز والساكي اللذان كان بإمكانهما أن يكونا مادة القربان المقدس لو أن "أن القدر الإلهي المحتوم قضى بأن المسيح يتجسد في اليابان". لكن علم اللاهوت ليس علم الممكن أو " ما كان يمكن ان يحصل لو أن ...." : فهو لا ينطلق إلا استناداً على معطيات ايجابية وتاريخية من الوحي محاولاً فهمها. وفي هذا الاتجاه، وبما لا يقبل الجدل اختار يسوع الاحبار الاثني عشر. من هنا يجب الانطلاق لتحديد كل الأنواع الأخرى من التبشير في الكنسية. فليس الغرض هنا البحث عن أسباب للتفاضل وانما قبول اتصال الله بطريقة ما وبتاريخ ما وأن هذا التاريخ بتفرده هو الذي مازال يحدد هويتنا حتى الآن.

اتفق معك أن الأسباب الرمزية، على الأقل التي تم عرضها حتى الآن، ليست مقنعة بالمقام الأول. فأنت تذكر تحديداً المميزات الكبرى التي منحها المسيح للنساء اللائي تبعنه ومن ثم ظهر اليهن بعد بعثه. فعلى العكس من قانون عصره، قدم السيد المسيح بعض

التوجيهات الواضحة حول المساواة بين الرجل والمرأة. وهذا أحد المعطيات الفعالة التي ينبغي على الكنيسة أن تستمد منها على مرّ الزمن كل النتائج المناسبة ولا يمكننا الاعتقاد بأننا قد أدركنا مسبقاً قوة هذه المبادئ العملية. أما بالنسبة للحجة القديمة من النوع البيولوجي فقد عفا عليها الزمن بالتأكيد.

ولهذا السبب حتى القديس توما لم يتمكن من اقتراح براهين يمكن وصفها في الوقت الحاضر مقنعة لنا وهو الذي كان رجلاً ذا عقيدة راسخة وذو حس سليم إلا أنه لم يتمكن من تجاوز المفاهيم العلمية لزمانه ولا العادات العقلية لمعاصريه. استسلم لمتابعتك في تحليلك الدقيق لمقاطع متعددة من كتاب الخلاصة، ليس لأني أجدها رتيبة ولكن لخشيتي من عدم تمكن القارئ من المتابعة. فقد عرضت لنا القديس توما وكأنه ممزق داخلياً بين المبادئ المختلفة وأنه يحاول جاهداً ايجاد أسباب للتطبيق العملي للكنيسة مع وعيه تماماً بأنه ليس مُقتنعا بها تماما. وقد كان حجر العثرة هو المبدأ الذي يقول بأن " جنس الذكر أكثر نبلاً من النساء" (الملخص 31، 3، 4)

وانه من ناحية يطبقه كشيءٍ محتم في زمانه، ومن ناحية أخرى فهو يتعارض مع الصلاحيات التي منحها المسيح والكنيسة للمرأة. واليوم نرى أن مثل هذا المبدأ قد عفا عليه الزمن ولذلك فإن الأسباب اللاهوتية التي استمدت منه باطلة.

ولكن بعد ذلك، قد تسألني ، ما هي نتيجة ذلك؟ ذلك يؤدي إلى شيء بسيط جدا وهام جدا: التطبيق العملي للكنيسة ،عميق الجذور في تقاليدها والذي لم يشهد استثناءات حقيقية خلال الفي عام من التاريخ، ولا يرتبط بدوافع بديهية أو تجريدية بحتة ، لكن بشيء ما مستمد من سرها بذاته. وحقيقة أن كثيراً من الأسباب المزعومة على مرّ العصور التي أوكلت الكهنوت إلى الرجال وحدهم لم تعد قادرة على الصمود في وقتنا الحاضر، في حين إن التطبيق العملي ما يزال قائماً وبقوة كبيرة (يكفي أن نفكر في الأزمات التي يثيرها التطبيق العملي المضاد، حتى خارج الكنسية الكاثوليكية في الكنيسة الانجليكانية) وهذا الشيء ذاته يسمح لنا بفهم أننا نجد أنفسنا ليس فقط في مواجهة المنطق البشري ولكن في

مواجهة رغبة الكنيسة بألّا تكون خائنة لأحداثها الانقاذية والتي ولدتها ولم تشتقها من الأفكار الإنسانية ولكن من الله بذاته.

ويترتب على ذلك نتيجتان رئيستان يتوافق معهما البابا الحالي بشدة. فمن ناحية يجب تعزيز دور حضور النساء في جميع المستويات الاجتماعية والكنسية، وكما لم يحدث من قبل وحتى هذا الوقت. ومن ناحية أخرى، يجب علينا الولوج إلى فهم طبيعة الكهنوت والمناصب المنظمة بعمق أكبر مما كان عليه في الماضي. واسمح لي باقتباس فقرة في غاية الأهمية من المجمع الفاتيكاني الثاني: "في الواقع، تصوّر الأشياء يتطور وكذلك الكلام المتناقل، سواء أكان ذلك عن طريق التأمل والدراسة التي يقوم بها المؤمنون الذين يتأملونها بقلوبهم (انظر 2 و 19 و51) أم عن طريق الذكاء الداخلي الذي يمحصون من خلاله الأمور الروحانية، من خلال وعظ أولئك الذين يتمتعون بموهبة اكيدة في معرفة الحقيقة فضلاً عن ذلك الخلافة. أكيدة من الحقيقة. وبذلك تتوجه الكنيسة، في حين تمر القرون، إلى الامتلاء بالحقيقة الإلهية حتى يتصدق فيها كلام الله."(من / الكلمة 8).

تعترف الكنيسة اذن بعدم وصولها إلى الفهم الكامل للأسرار التي تعيشها وتحتفي بها ، ولكنها ترنو بثقة إلى مستقبل من شأنه أن يسمح لها بأن تشهد تحقيق ليس مجرد التوقعات أو الرغبات الإنسانية وإنما تحقيق وعود الرّب ذاتها. وعلى هذا المنوال تهتم الكنيسة بأن لا تنحرف عن التطبيق العملي وعن نموذج السيد المسيح ، لأن ليس من خلال البقاء وفيا بطريقة مثالية يمكنها فهم العلاقات التضمينية للتحرر وهو مثلما اكد القديس توما باقتباسه من القديس اوغسطين ، حول ظهور كلا الجنسين : " من المناسب جدا أن يتلقى ابن الله جسده كجسد امرأة [...] لأن الطبيعة الإنسانية كلها سمت بهذه الطريقة. ولهذا السبب قال القديس اوغسطين : " يجب أن يتجلى تحرر الإنسان في الجنسين"" (الملخص 3، 31، 4).

Carlo Maria Martini ***octobre 1995***

كارلو ماريا مارتيني

في

تشرين الاول 1995

أين يجد العلماني نور الخير ؟

ها أنا هنا أمامك مع السؤال الذي كنت انوي توجيه إليك في رسالتي الأخيرة والذي قمت بصياغته مسبقاً. وهو يتعلق بالأساس النهائي للأخلاق بالنسبة للشخص العلماني، وفي إطار "ما بعد الحداثة". ما أعنيه على وجه التحديد هو : على أي أساس يبني العلماني اليقين والضرورة في عمله الأخلاقي، لتأسيس قيم أخلاقية مطلقة، والذي لا ينوي اللجوء إلى مبادئ ميتافيزيقية أو على الأقل إلى متطلبات قاطعة صالحة عالمياً؟ وببساطة (لأن بعض القرّاء شكوا لي المبالغة في صعوبة حواراتنا) ما هي الأسباب التي يعطيها من يسعى إلى تأكيد أو تعليم المبادئ الأخلاقية إلى هذه الأفعال – تلك المبادئ يمكن أن تذهب إلى حد المطالبة بالتضحية بالحياة - دون الاعتراف مع كل هذا بوجود شخصية الله ؟ أو :

كيف يمكنني أن أقول كنوع من التجريد الحاصل ومن خلال الدعوة إلى المطلق، إذ لا يمكنني القيام ببعض الأعمال في أي حال من الأحوال، وبأيّ ثمن، في حين يمكنني القيام بأمور أخرى مهما كان الثمن ؟ بالتأكيد هناك قوانين، ولكن على أي أساس يمكنها اجباري ، أيكون ذلك على حساب حياتي؟

هذه هي الأسئلة التي أود أن أتناولها معك هذه المرة.

بالتأكيد، أود كثيراً ان يكّون للرجال والنساء في هذا العالم، جميعاً، بمن فيهم أولئك الذين لا يؤمنون بالله، أسساً أخلاقية واضحة تمكنهم من العمل باستقامة، من خلال الالتزام بتلك الأسس. وأنا مقتنع أيضاً أن هناك العديد ممن يتصرفون باستقامة، على الأقل في ظروف الحياة العادية، من دون الاستناد إلى أساس ديني للوجود الإنساني. وأنا أعلم أن هناك أيضا أُناساً ، مع انهم لا يؤمنون بإله محدد، دفعوا حياتهم كي لا يفرِطوا بقناعاتهم الأخلاقية. لكنني لم اتمكن من فهم المبرر النهائي الذي يبررون فيه أفعالهم.

بطبيعة الحال، حتى الأخلاق "العلمانية" يمكنها في الواقع أن تجد وتعترف بمعايير وقيم صالحة للتعايش الإنساني الجيد. وبذلك ولدّت غالبية التشريعات الحديثة. ولكن كي لا تعاني أسس هذه القيم من الارتباك وعدم اليقين، لا سيما في القضايا المحددة، حتى لا يساء فهمها وأخذها على انها مجرد عرف، أو اتفاق أو عادة أو تصرف وظيفي مفيد، أو ضرورة اجتماعية، لكي يتحمل قيمة مطلق اخلاقي حقيقي، يجب أن لا يكون هذا الأساس مرتبطاً بأي مبدأ قابل للتغيير أو قابل للتفاوض.

وهذا عندما نتجاوز نطاق القوانين المدنية أو الجنائية خاصة ، عندما يتعلق الأمر بمجال العلاقات الشخصية المتبادلة ، ومسؤولية كل فرد تجاه خلفه فيما وراء أي قانون مكتوب، حيث نطاق الايثار والتضامن .

عن طريق عرض مسألة عدم كفاية أي أساس إنساني بحت، ولا أود هنا زعزعة أي ضمير، ولكن مجرد محاولة لفهم ما يحدث في الداخل، في الأسباب الموضوعية، لتشجيع تعاون اكثر قوة في القضايا الأخلاقية، بين المؤمنين وغير المؤمنين.

ومن المعروف أن الديانات الكبرى بدأت بترسيم طريق مشترك فيما بينها للحوار والمواجهة لتأكيد المبادئ الأخلاقية المشتركة من قبل الجميع. وبهذا نحن نعتقد بأننا لن نتمكن من القضاء فقط على أسباب الحروب الدينية بين الشعوب وإنما نقدم خدمة فعّالة في مجال الارتقاء بالإنسان. وعلى الرغم من الصعوبات التاريخية والثقافية التي يستوجبها مثل هذا الحوار ، إلا انه جعل من وجوده سراً منزه كأساس لعمل أخلاقي ممكناً إذ إن الديانات كلها تطالب به، وقد تم عرض ذلك بطرائق مختلفة. وبذلك فقد نجحنا في تحديد مجموعة من المبادئ العامة والمعايير السلوكية التي يمكن أن تميز كل ديانة ومعها يمكن لكل ديانة التعاون في عمل جماعي دون المساس وإنكار أي من معتقداتها. في الواقع، " يمكن أن نبرر الدين بوضوح ، فلماذا الأخلاق والقيم والمعايير الأخلاقية تكون مُلزمة دون قيد أو شرط (وليس فقط إلى الحد الذي يناسبني)، وبالتالي عالمياً (جميع الفئات الاجتماعية، وجميع الطبقات، وجميع الأعراق). وبذلك سيتم حفظ البشر من خلال إيجاد أصوله في الذات الإلهية.

ويظهر التاريخ أن غير المشروط وحده يمكن أن يجبر من دون قيد أو شرط، والمطلق فقط يمكن أن يربط على الاطلاق "(هانز كينغ "Hans Küng، *مشروع الأخلاق العالمية*، باريس، دار النشر سوي، 1991، ص. 144).

هل بالإمكان ايجاد مثل هذا الحوار للبحث في العلاقة بين المؤمنين وغير المؤمنين حول القضايا الأخلاقية، بين الكاثوليك والعلمانيين خاصة؟ حاولت جاهدا أن التقط ، في تعبيرات بعض العلمانيين، شيئا ما له قد يحمل قيمة عقلية مطلقة وأن يكون بنحو ما مطلقا في فعلهم الأخلاقي. وبذلك فأنا مهتم جدا بالسبب الذي يقوم، بالنسبة لبعضهم، بواجب التقارب والتضامن دون اللجوء إلى الله الآب وخالق كل شيء وإلى اخينا يسوع المسيح. يبدو لي أنهم يتكلمون تقريباً على النحو التالي : الآخر هو فينا! وهو فينا بغض النظر عن كيفية تعاملنا معه، من ناحية أننا نحبه أو نكرهه أو أن لا نبالي به اصلا.

ويعدّ مفهوم "الآخر فينا" بالنسبة لجانب من التفكير العلماني وكأنه على ما يبدو لي ، الركيزة الأساسية لأيّ فكرة في التضامن. ولكن ما صدمني بشدة، خصوصاً عندما آراه في حيز التطبيق هو أنه ينأ بأعمال التضامن بعيداً، إلى كل ما هو غريب وشاذ. وقد صدمني أيضاً لأنه وفي ضوء التأملات الإيمانية للقديس بولص حول وحدة الجسد الذي نحن جميعنا اعضاء فيه (انظر في الرسالة إلى كونثوس 12، وفي الرسالة إلى كنيسة رومة 12)، يحل ويمثل واقعية قوية ويمكن إن يُقرأ من زاوية الإيمان المسيحي. ولكنني أتساءل تحديداً عمّا إذا كانت القراءة العلمانية، والتي تفتقر لهذا التعليل الأساسي، كافية، لو كان لها قوة الاقناع الحتمية ولو أنها تمكنت من التحمل حتى مغفرة الاعداء على سبيل المثال. ويبدو لي أنه من دون كلمة ومثال السيد المسيح، الذي غفر وهو على الصليب الى أولئك الذين صلبوه، ستجد التقاليد الدينية نفسها هي ايضاً في موقف صعب حول هذه النقطة الأخيرة. فما هو إذن رأي أصحاب الأخلاق العلمانية؟

إنني أدرك إذن وجود عددٍ من الأشخاص الذين يتصرفون بشكل صحيح من الناحية الأخلاقية وهم يقومون بأعمال على درجة عالية جداً من الايثار من دون أن يكون لديهم أو من دون أن يعرفوا أن يعرفوا انهم يملكون أساساً متعاليا لأفعالهم ، ومن دون الرجوع إلى الله الخالق ولا إلى إعلان ملكوت الله بكل نتائجها الأخلاقية ، ولا إلى موت وبعث المسيح وعطاء الروح القدس ، ولا إلى وعد الحياة الأبدية : ومن هذه الواقعية استمد قوة هذه المعتقدات الأخلاقية التي اتمنى ، في لحظات ضعفي ، أن تكون دائماً هي النور والقوة لا فعالي. لكن الذي لا يشير إلى هذه المبادئ ، أو إلى مبادئ مماثلة ، أين يجد النور والقوة لكي يتصرف على وفق مبادئ الخير ، في ظروف سهلة ولكن ايضاً في تلك الظروف التي تضعه على المحك وعلى حافة قوة التحمل البشرية ، وخصوصا تلك التي تجعله في مواجهة الموت ؟ لماذا الايثار والصدق والعدالة واحترام الآخرين والعفو عن الأعداء هي دائماً من أعمال الخير

ودائماً ما تكون مفضلة ، حتى لو كان ثمنها الحياة، على تصرفات تناقضها ؟ وكيف يمكنك أن تقرر، و على وجه اليقين في حالات محددة، ما هو الإيثار وما هو غير ذلك؟

وإذا لم يكن هناك أي تسويغ نهائي على أن يكون صالحاً دائماً لمثل هذه التصرفات، فكيف يمكن أن تكون هذه التصرفات من الناحية العملية، سواء كانت هي دائماً المفضلة أو كانت هي دائماً السائدة ؟ حتى تلك التي تتمتع بحجج قوية فيما يتعلق بالتصرفات الأخلاقية فهي بالكاد تتطابق معها، فكيف سيكون موقف من حججه ضعيفة وغير مؤكدة ومتذبذبة؟

لا يمكنني فهم كيف لهذه الحياة المستوحاة من هذه المعايير (إيثار، وصدق، وعدالة، وتضامن، وتسامح) أن تصمد طويلا، وفي مواجهة الظروف المختلفة إذا لم تكن القيمة المطلقة للمعيار الأخلاقي مستندة على المبادئ الميتافيزيقية أو على إله محدد.

من المهم جداً أن تكون هناك أرضية مشتركة بين المؤمنين وغير المؤمنين على المستوى الأخلاقي، ليتسنى لهم العمل معا لتعزيز العدل والسلام للإنسان. من الواضح أن الدعوة لكرامة الإنسان هي المبدأ الذي تقوم عليه طريقة الشعور الشائعة وطريقة الفعل : إذ لا يجب أبدا استغلال الآخر، ويجب احترام حرمته في كل مكان وزمان، والنظر دائماً إلى كل شخص بوصفه واقعاً لا يمكن المساس به أو التصرف فيه . ولكن هنا أيضاً، في مرحلة ما، فإن المرء يتساءل عن ماهية المسوغ النهائي لهذه المبادئ. على ماذا تستند في الواقع كرامة الإنسان إن لم يكن على حقيقة أن كل إنسان هو شخص منفتح على شيء أسمى وأكبر منه؟ هذه هي الطريقة الوحيدة التي لا يمكن أن يكون من خلالها مقيدا بمصطلحات التضامن الاجتماعي وأن يتمتع بحرية لا يمكن المساس أو الطعن بها.

أنني حريص جداً على تعميق كل ما يشجع على العمل المشترك بين المؤمنين وغير المؤمنين فيما يخص رقي الإنسان. لكنني

أعرف أيضاً أنه عندما لا يكون هناك اتفاق على المبادئ ففي نهاية المطاف، إن عاجلا أو آجلا، وخصوصاً عندما تمس حدود القضايا المتجاورة، يحدث شيء ما ويسلط الضوء على اختلافات جوهرية. وهنا يصبح التعاون أكثر صعوبة وأحياناً تتبادر إلى الأذهان أحكام أخلاقية متعارضة حول قضايا حاسمة في الحياة والموت.

ما العمل في الحالة هذه ؟ هل نتقدم إلى الأمام بحياء وتواضع حول النقاط المشتركة، متأملين بأن لا تطفو على السطح أسباب الاختلافات والمتناقضات ؟ أم نسعى معا لتعميق أسباب الاتفاق الفعلي على موضوعات عامة مثل العدل والسلام وكرامة الانسان بهدف الوصول الى تلك الامور الخفية، التي تكمن في الخيارات اليومية وحيث يظهر عدم التوافق الجوهري أو الامكانية المحتملة لتجاوز الشك والخروقات، للتحرك نحو "سر" يخضع له كل شيء، لأن هذه الثقة ستولد امكانية تأسيس فعل مشترك لعالم أكثر إنسانية ؟

حـول هـذا الموضـوع المـثير أود معرفـة أفكـارك. والواقـع أن النقاش حول مشاكل أخلاقية معينة يؤدي دائماً إلى التساؤل حـول الأصـول. لـذلك اعتقـد أن التسـاؤل حـول مواضـيع مثـل الـتي تم عرضها يستحق العناء لغرض تسليط بعـض الضـوء علـى مـا يفكـر فيه الجميع وعلى فهم أفضل لوجهة نظر الآخر.

كارلو ماريا مارتيني كانون الثاني 1996

Quand l'autre entre en scène naît l'éthique

عندما يدخل الاخر في المشهد تولد الاخلاق

عزيزي مارتيني،

إن رسالتك تأخذني من حيرة خطيرة لكي ترميني في حيرة أخرى لا تقل خطورة عن الأولى. فحتى الآن، كنت دائماً أنا من يجب عليه بدأ النقاش (وليس لي يد بذلك)، وحتما من يبادر بطرح السؤال ينتظر اجابات الآخر. ومن هنا تولد لدي الانطباع بأني أُمثل حالة تحقيقية. وهذا معناه أني أقدر كثيراً التصميم والتواضع الذي من خلاله قمت ولثلاث مرات بتدمير الأسطورة القائلة بأن اليسوعيين يجيبون عن السؤال بسؤال آخر.

لكنني أشعر بالحرج الآن وأنا أجيب عن سؤالك لأن جوابي سيحمل معنى مهماً لو كنت علمانياً منذ نعومة اظفاري، لكن الحقيقة إني تلقيت تعليماً كاثوليكياً حتى ناهزت الثانية والعشرين

من عمري (يجب تحديد لحظة التحول بدقة). فلم يكن المنظور العلماني أبدا بالنسبة لي إرثا اتلقاه بسلبية وإنما هو ثمرة مؤلمة جداً لتبدل بطيء وطويل، ولست متأكداً إلى الآن من أن بعض معتقداتي الأخلاقية لا تزال تستمد من هذه البصمة الدينية التي تميزت بها من البداية. ففي عمر متقدم نسبياً الآن، رأيت بعض زملائي يتهيؤون للتعميد من دون إيمان ب "التجلي الحقيقي" (أي جامعة كاثوليكية أجنبية توظف اساتذة بخلفية علمية علمانية تطالبهم بإظهار الاحترام المبجل أثناء الاحتفالات الرسمية ذات الطابع الديني للجامعة)، وبالنتيجة من دون أن يتم اعتراف منهم. ما زلت بعد سنوات طويلة أشعر بالرعب وارتجف من تدنيس المقدسات.

ومع ذلك، أجرؤ على البوح بالأساسيات التي يرتكز عليها " تديني" العلماني ؛ لأنني أعتقد جازماً أن هناك أشكالاً للتدين، وبالتالي الشعور بالمقدس، وبالحدود، وبالاستعلام والتوقع، وبالتواصل مع شيء أبعد منا، حتى في غياب الإيمان في ألوهية

الشخصية والعناية الإلهية. ولكن هذا شيء تعلمونه جيداً كما اعلمه، وهو ظاهر في رسالتك. في الواقع، تتساءل عما تمتلكه هذه الأشكال الأَخلاقية بذاتها والتي تدفعنا للإحساس بأننا مرتبطون وملتزمون به ومن غير الوارد التخلي عنه.

وأود أن أتناول الأمور على نحو أوسع. إذ أصبحت بعض المشاكل الأخلاقية أكثر وضوحاً بالنسبة لي عندما عكفت على القضايا الدلالية ـ وبغض النظر عما إذا وجد بعض الناس صعوبة فيما نتناوله : فقد تم تشجيعهم بلا شك على التفكير ببساطة شديدة من خلال "إيحاءات" وسائل الإعلام الجماهيرية، والتي يمكن التنبؤ بها بحكم طبيعتها. فليتعلمو التفكير الجاد لان السر والبرهان ليسا بهذه السهولة.

والمقصود هو معرفة عمّا إذا كان هناك "مسلمات دلالية" أي مفاهيم أساسية مشتركة للبشرية جمعاء، والتي يمكن التعبير عنها اللغات بجميعها. إلا أن المشكلة ليست بهذا الوضوح، فعندما

نعرف أن عدداً من الثقافات لا تعترف بمفاهيم واضحة بالنسبة لنا، مثل تلك المتعلقة بالجوهر والتي تعود لها خصائص معينة على سبيل المثال (عندما نقول بأن "التفاحة حمراء") أو تلك المتعلقة بالهوية مثل (أ = أ). على الرغم من كل هذا، فقد توصلت إلى اليقين بأن هناك مفاهيم مشتركة بين جميع الثقافات، و جميعها تشير إلى موضع أجسادنا في الفضاء.

فنحن حيوانات ذوات وضعية مستقيمة، لدرجة أن بقاء رأسنا منحنيا للأسفل لمدة طويلة يؤلمنا، ونحن بهذا لدينا مفهوم مشترك للأعلى والأسفل، مع الميل إلى تفضيل الأول على الثاني. وبالمثل، لدينا فكرة وجود اليمين واليسار، وحالة الجمود أو المشي، وحالة الوقوف أو الاستلقاء، والزحف أو القفز، والاستيقاظ والنوم. وبما اننا نمتلك أعضاء، فنحن نعلم جميعا ماذا يعني الاصطدام بمادة صلبة، وما يعنيه اختراق مادة لينة أو سائلة، وما يعنيه التحطيم، وإثارة الضجيج والدوس على الاشياء بالأقدام ، وتوجيه الركلات، أو حتى الرقص. يمكنني متابعة هذه القائمة، لتشمل

البصر، والسمع، والأكل أو الشرب، البلع أو القيء. وبالطبع كل واحد لديه فكرة عما يعنيه الإدراك والتذكر والشعور بالرغبة، والخوف، والحزن أو المواساة، والمتعة أو الألم، و يمكنه اصدار الأصوات التي تعبر عن هذه المشاعر. وبالتالي (وندخل هنا في اطار القانون) فإن لدينا مفاهيم عالمية حول الضغوط : أي أننا لا نرغب في أن يمنعنا شخص ما من الكلام، من أن نتكلم، وأن نرى وأن نسمع وأن ننام وأن نبتلع وأن نتقيء وأن نذهب الى حيث نريد؛ إننا نعاني عندما يحبسنا شخص ما أو أن يحكم علينا بالعزل ويضربنا ويجرحنا أو يقتلنا ويخضعنا للتعذيب الجسدي او النفسي مما يقلل أو يلغي قدرتنا على التفكير.

لاحظ أنني حتى الآن أتحدث عن البشر أي عن آدم بصفته الحيوانية والانعزالية، والذي لا يدرك حتى الآن ما هي العلاقة الجنسية، أو متعة الحوار، أو حب الأطفال، أو ألم فقد شخص عزيز ؛ في هذه المرحلة بالفعل على الأقل بالنسبة إلينا (ان لم يكن بالنسبة له أو لها)، وقد أصبحت هذه الدلالة أساساً للأخلاق :

يجب أن نحترم قبل كل شيء جميع حقوق الآخرين الجسدية، بما في ذلك الحق في الكلام والتفكير. فلو احترم قرنائنا هذه الحقوق الجسدية، لما حدثت مذبحة الابرياء، ولما أُلقي المسيحيون للأسود في الساحات، ولما حدثت مذبحة القديس بارتيليمي ولما اقيمت محارق الهراطقة، ولا معسكرات الإبادة، ولا الرقابة، ولا أطفال المناجم ولا الاغتصاب في البوسنة.

ولكن كيف يمكن للوحش (أو الدويبة) المذهول والمفترس، باستعمال الفوري لكل مخزونه الفطري للمفاهيم الكونية، والذي وضعته تحت الأضواء التوصل إلى فهم ليس فقط رغبته في عمل هذا الشيء أو ذاك وعدم رغبته في أن يتصرف معه الآخرون بشكل آخر، وإنما يدرك ايضا عدم تصرفه مع الاخرين تصرفات لا يرضاها لنفسه ؟ وذلك لأن جنة عدن لحسن الحظ قد اصبحت آهلة بالسكان سريعاً. إذ ينشأ البعد الأخلاقي عندما يدخل الآخر في الصورة. فكل قانون ــ أخلاقي أو قانوني ــ ينظم العلاقات الشخصية، بما في ذلك العلاقة مع الآخر الذي يفرض ما يسمى القانون.

لقد أسندت أنت أيضا إلى العلماني الفاضل اليقين بأن الآخر هو فينا. ولا تختص الحالة هذه بنزعة عاطفية مبهمة، وإنما بظرف تأسيسي. و يعلمنا ذلك حتى اكثر الأشخاص علمانية في العلوم الإنسانية، إنه الآخر، انها نظرته، تلك التي تحددنا و تشكلنا. و أننا لا نستطيع العيش من دون مأكل ونوم، لا يمكننا فهم ماهيتنا من دون نظرة الآخر واستجاباته. حتى ذلك الذي يقتل ويغتصب ويسرق ويتجاوز، فإنه يقوم بهذه الأعمال في لحظات استثنائية، وباقي الوقت يستجدي من قرنائه اقرارهم بالحب وبالاحترام وبالثناء. حتى من الشخص الذي يقوم بإذلاله، فهو يطالبه بالاعتراف بالخوف منه والخضوع له. فلولا هذا الاعتراف لم يكن الطفل الذي وُلد ليصبح إنسانا (أو في حالة طرزان فإنه بالأساس كان يبحث عن الآخر بأي ثمن في وجه القرد)، ويمكن للمرء أن يموت او أن يصاب بالجنون إذا كان يعيش في مجتمع قرر كل من فيه بصورة منتظمة عدم النظر إلى بعضنا نهائيا والتصرف وكأننا غير موجودين.

لماذا، إذن، تقر ثقافات معينة أو أقرت المذابح، وأكل لحوم البشر، وإهانة أجساد الآخرين؟ ببساطة لأنها تختزل مفهوم "الآخرين" في المجتمع القبلي (أو العرقي)، معتبرة "البرابرة" كائنات لا إنسانية ؛ أما بالنسبة للصليبيين فهم لا ينظرون إلى الكفار على انهم اقرباء لهم يحبونهم لاعتبارات أخرى. في الواقع إن الاعتراف بدور الآخرين وضرورة أن نحترم ما فيهم من هذه الموجبات التي ليس بإمكاننا أن نتصور أننا يمكن التنازل عنها لأنفسنا، هذا الاعتراف هو نتاج النمو الألفي. وحتى الوصية المسيحية بالحب لم تذكر ـ وبالكاد قُبلت ـ إلا عندما حان الوقت لذلك.

ولكنك تسألني، هل هذا الوعي بأهمية الآخر يكفي يتقدم لي قاعدة مطلقة ، أي أساساً ثابتاً للسلوك الأخلاقي؟ أنا أزعم أنه حتى ما تسمونه الأساسات المطلقة لا تمنع المؤمنين من الخطيئة مع كل ما يمتلكونه من وعي بارتكابها، وأن النقاش سيكون قد انتهى : إذ أن إغراء الشر موجود حتى عند أولئك الذي يتمتعون بمفهوم ثابت ودلّ عليه الخير. ومع ذلك فأنا أفضل أن أروي لك حكايتين دفعتاني للكثير من التفكر.

تتعلق الأولى بكاتب كاثوليكي كما يسمونه ـ وهذا شيء فريد ـ ولا أريد أن أذكر اسمه ، لأن ما سأذكره باح لي به في محادثة خاصة ، وأنا لست بواش. وقد كان ذلك في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين فبعد أن مجَد فضائله بحماس أكد (مع نية واضحة بالمفارقة) : " من المحتمل أن يكون البابا يوحنا ملحدا. فقط ذلك الذي لا يومن بالله يمكنه أن يحب أقرانه حباً كثيرا !" وككل المفارقات ، ما قاله كان يتضمن جانبا من الحقيقة : من دون ذكر الملحد (وهو وجه لا اعرف دواخله النفسية ، لأنني استناداً إلى كانط لا أفهم كيف إن امرئ يستطيع أن لا يؤمن بالله ويعتقد بأنه لا يمكن اثبات وجوده ، ثم الاعتقاد بقوة بعدم وجود الله والإيمان بإمكانية اثبات ذلك) يبدو لي واضحاً إن الشخص الذي لا يمتلك تجربة التنزيه ، أو اضاعها ، يمكن أن يعطي معنى لحياته ولموته ، أو يمكنه الإحساس بالراحة لا بشيء وإنما بحبه للآخرين ، أو من خلال محاولة ضمان حياة أخرى لشخص ما يمكن أن يعيشها بعد وفاته نفسه. هناك من هم لا يؤمنون ولكنهم يسعون إلى إضفاء معنى لموتهم ، بينما هناك من يدعي الإيمان ولكنه يمتلك استعداد

لانتزاع قلب طفل حي في سبيل البقاء على قيد الحياة. إن قوة الأخلاق يحكمها تصرف القديسين، وليس تصرف الحمقى.

وأتناول الآن القصة الثانية. كنت كاثوليكيا أبلغ من العمر ستة عشر عاماً، اضطررت إلى الدخول في مبارزة كلامية مع رجل من معارفي، أكبر مني سناً، كان يوصف بال "شيوعي"، بما كان يحمله هذا المصطلح في حقبة الخمسينات الرهيبة. وبما أنه أغاظني فقد سألته ذلك السؤال الحاسم : كيف يمكنه بوصفه غير مؤمن أن يفسر معنى هذا الشيء الذي لا معنى له والذي هو موته؟ فأجابني : "عن طريق الوصية قبل الموت بجنازة مدنية. وهكذا صحيح انني لن اكون موجودا ولكني سأترك للأخرين قدوة." لا أعتقد أنك ممن يفوتهم الاعجاب بالإيمان العميق لدى البعض باستمرارية الحياة وبالمعنى المطلق للواجب الذي حثه على هذه الاجابة. وهذا هو المعنى الذي دفع عددٍ من غير المؤمنين للموت تحت نير التعذيب من دون خيانة اصدقائهم، ودفع آخرين للإصابة بالطاعون في سبيل شفاء المصابين به. وهو في بعض الأحيان الشيء الوحيد الذي يدفع

الفيلسوف للتفلسف والكاتب للكتابة : أي ترك رسالة في زجاجة كي تتمكن الأفكار التي لا يؤمن بها أحد الآن أن تجد من يؤمن بها أو يستحسنها ممن سيأتي لاحقا إن عاجلاً أم آجلاً.

هل هذا حقاً شعور قوي بما فيه الكفاية لتسويغ أخلاقيات محددة لهذه الدرجة وغير مرنة ، تم تأسيسها بقوة مماثلة لتلك التي يمتلكها أولئك الذين يؤمنون في المثل العليا وفي خلود الروح وفي الثواب والعقاب ؟ حاولت إرساء مبادئ الأخلاق العلمانية على واقع طبيعي (وبالتالي ، بالنسبة لك ، هو نتيجة للمشروع الإلهي) كحالتنا الجسمانية وكالفكرة القائلة بأن وجود الآخر فقط هو الذي يجعلنا ندرك غريزيا بأن لنا أرواح (أو شيء ما من خلال العمل).إذ يبدو أن ما أسميه الأخلاق العلمانية هو في حقيقته أخلاقاً طبيعية يعترف بها حتى المؤمن. أليست الغريزة الطبيعية القائمة على نضوج عادل وعلى وعي ذاتي هي بذاتها أساساً مانحاً لضمانات كافية ؟ بالتأكيد من حقنا التفكير بعدم وجود كفاية من جرعات الفضيلة : فعلى أيّ حال ـ يمكن لغير المؤمن ان يقول ذلك ـ لن يعرف أحد

الشر الذي انوي القيام به سراً. ولكن حذار، فغير المؤمن لا يعتقد بوجود من يراقبه في الأعلى وهو بهذا يعرف ـ بسبب هذا تحديدا ـ أن لا أحد سيغفر له. فلو أدرك أنه يقترف ذنباً، فشعوره بالوحدة سيكون ابدياً، وسيموت يائساً. وسوف يعرِض نفسه بالأحرى وكما يفعل المؤمن للتطهير ولكن من خلال الاعتراف العلني وذلك بطلب الصفح من الآخرين. وهذا ما يعرفه في أعماقه وإذن فهو يدرك بأن عليه أن يصفح عن الآخرين مقدماً. وإن لم يكن هذا هو الحال فكيف نفسر بأن الشعور بالندم هي مشاعر يحسها حتى غير المؤمنين ؟

لا أريد أن أخلق تضاداً قطعياً بين من يؤمن بالله تعالى ومن لا يؤمن بأي مبدأ يتجاوز الفردية. ولا ننسى أن سبينوزا خصص كتابه العظيم لعلم الأخلاق حصراً وهو يفتتح كتابه بتعريف لله على أنه سبب وجوده بذاته. وباستثناء ذلك فنحن نعلم جيداً أن حقيقة الألوهية السبينوزية ليست متعالية ولا شخصية: ومع ذلك فحتى التفكير بوجود جوهر مادي كوني أوحد سيقوم بابتلاعنا يوماً ما

يمكن أن يولد رؤية عن التسامح والرحمة، لأننا كلنا معنيون بتحقيق توازن وانسجام هذا الجوهر الكوني الفريد. نحن معنيون لأننا ندرك استحالة عدم تأثر هذا الجوهر سواء بالسلب أو الايجاب بما اقترفناه خلال آلاف السنين. لدرجة أني اجرؤ على القول (لا ترى في ذلك فرضية ميتافيزيقية، وإنما مجرد استسلام خجول للأمل الذي لا يفارقنا ابدا) بوجوب التفكير من هذا المنظور بمسألة وجود حياة أخرى بعد الموت. فاليوم يعلمنا الكون الإلكتروني بإمكانية وجود سلسلة من الرسائل تنتقل من واسطة مادية إلى أخرى من دون أن تفقد خصائصها المتفردة ويبدو أن لها قابلية التعايش كخوارزمية مجردة وغير مادية في حين تم التخلي عنها من قبل الوساطة الأولى ولم يتم طبع خصائصها بعد على الوساطة الأخرى. ومن يدري إن كان الموت، بدلاً من أن يكون انهياراً، يكون انفجاراً وانتشاراً في مكان ما، بين زوابع الكون، والبرمجيات (التي يسميها آخرون الروح) التي قمنا بتطويرها اثناء حياتنا، والمعجونة بالذكريات والتأنيب الشخصي وبالتالي بمعاناة

مستعصية، وبشعور بالسلام تجاه الحب وتجاه الواجب الذي أتممناه.

ولكنك تقول، من دون وجود أنموذج للسيد المسيح وكلامه ، فإن أي أخلاق علمانية ربما سوف تفتقر إلى مسوغٍ موضوعي يمتلك قوة إيمان حتمية. لماذا يحرم العلمانيين من حق التخلص من نموذج المسيح الذي يغفر؟ حاول، ياكارلومار يامارتيني، من أجل خير هذه المناقشة والمواجهة التي تؤمن بها، أن تتقبل ولو للحظة فرضية أن الله غير موجود : أي أن الإنسان ظهر على الأرض بسبب خطأ لصدفة خرقاء، وتُرك لمواجهة قدره الفاني، وليس هذا كل شيء وإنما حُكم عليه بأن يعي ذلك، وأن يكون بالنتيجة أقل الحيوانات كمالاً (اسمح لي بهذه النبرة الليوباردية[1] القاتمة). ولكي يجد هذا الإنسان الشجاعة بانتظار الموت، أصبح بالضرورة حيواناً دينياً متأملاً خلق روايات قادرة على إعطائه تفسيراً و

(1) نسبة الى الشاعر **جاكومو ليوباردي** Giacomo Leopardi الذي تغلب على كتاباته القتامة والألم. (المترجمة)

انموذجا وصورة مثال يُحتذى به . ومن بين كل التصورات التي يتخيلها ، بعضها مشرق وآخر مخيف وآخر مواسي بشكل مثير للشفقة ، وهو بذلك يمتلك ـ عندما يطغى عليه الزمان وفي لحظه معينة ـ القوة والتدين والأخلاق والتأثر لتصميم نموذج السيد المسيح للحب الكوني وللصفح عن الأعداء ولحياة ملؤها التضحية في سبيل خلاص الآخر. فلو كنتُ مسافرا قادماً من احدى المجرات البعيدة واكتشفت نوعاً من الأجناس تمكن من اقتراح مثل هذا النموذج ، فربما سأعجب ، مضطرا بكل هذه الطاقة لمن هو من سلالة الإله ، أما هذا النوع الدنيء البائس والذي ارتكب عدداً من المكاره فلربما سأحكم عليه بأنه افتدى نفسه بالفعل الوحيد الذي نجح بالإيمان به وتمني أن يكون كل ذلك هو الحق

اترك هذه الفرضية الآن وتحول عنها إلى فرضيات أخرى : وأعترف مع ذلك أن السيد المسيح لم يكن إلا موضوعاً لقصة كبيرة ، وأن حقيقة هذه القصة كانت متُخيلا أو مطلوباً من ذوي القائمتين المساكين ، الذين يعرفون فقط أنهم لا يعرفون ، ربما

ستكون إعجازية (أي غامضة بإعجاز) بالقدر نفسه الذي يكون فيه تجسد ابن إله حقيقي حدثٌ واقعٌ فعلاً. إن هذا السرّ الطبيعي الدنيوي لا ينفك يشوش ويعظم قلب غير المؤمن.

هذا هو السبب الذي يدفعني إلى النظر، فيما يخص النقاط الأساسية، في علم الأخلاق الطبيعي ـ الذي نكن له الاحترام بما يحمله من تدين عميق ـ على أنه يستطيع مواجهة مبادئ أخلاقيات مبنية على أساس الإيمان في السمو، والذي لا يسعه إلا الاعتراف بأن المبادئ الطبيعية قد نقشت في قلوبنا انطلاقا من نظام للخلاص. فلو بقيت — وبالطبع لن تبقى — نقاط ثانوية لا تتطابق، فإن هذا ما يحدث ايضاً في المواجهات ما بين الديانات المختلفة. وفي اطار صراعات الإيمان، فما يجب أن يسود هو الإحسان والحكمة.

أمبرتو ايكو كانون الثاني 1996

Umberto Eco *janvier 1996*

هذه خطابات متبادلة شكلت حوارا فلسفيا ودينيا وروحيا عميقا يمس المؤمن وغيرالمؤمن، تزيدنا يقينا بأن التفاهم والتحاور هما الصفتان الغالبتان على طبيعة البشر وليس الصراع والنزاع، وعندما نتحدث عن المؤمن نعني بذلك كل من يعتنق دينا سماويا اومعتقدا لاهوتيا بغض النظرعن مسماه.

يقوم الكتاب على حوار بين الفيلسوف والروائي والباحث المتخصص في القرون الوسطى الايطالي امبرتوايكوUmberto ECO المولود في 5 يناير 1932 والمتوفى في 19 فبراير 2016، وبين كاردينال ميلانو السابق نيافة كارلو ماريا مارتينيCarlo Maria MARTINI . وقد جرى هذا الحوار البريدي في عام 1995 أي في الحقبة التي وقف فيها العالم على اعتاب ألفية جديدة . حيث دعت احدى الصحف الايطالية الشهيرة وهي مجلة ليبرا هاتين القامتين العملاقتين لاجراء الحوار على صفحاتها، واستمرت هذه الرسائل للمدة بين آذار 1995 وكانونالثاني 1996. وجمعت هذه الرسائل الثمانية في كتاب نشر في عام 1997 باللغة الايطالية ومن ثم ترجم الكتاب الى الفرنسية ونشر لأول مرة عام 1998 .

ويتألف الكتاب من ثماني رسائل : اربع اسئلة واربع اجابات، يبادر امبرتو ايكو الذي يعد احد أهم النقاد اللادينيين في العالم بطرح ثلاثة اسئلة ويختم الكاردينال مارتيني وهو بطبيعة الحال المتحدث باسم الجانب الاخرمن الانسانية الذي يؤمن باللاهوت رسالاته بسؤال اخير.يدور الحوار بشكل عام عن الايمان والالحاد وعلاقة الانسان بالله من خلال تساؤلات أثيرت على اعتاب الفية جديده .

أبكالو